روايات مصرية للجيب

مغامرات س

البصمة

9

Looloo
www.dvd4arab.com

الخروج .. من عالم مظلم

محكوم علىّ بأن أبقى هنا ، فى قلب الظلام ، إن كان للظلام قلب ، ربما حتى الأبد ..

قدرى .. أن أخرج أحيانًا إلى عالم النور والأحياء ، أتبرعم مثل زهرة تولد فى نهار ربيعى ، تتفتح عيناى على الدنيا بدهشة مولود ينبثق من رحم الفراغ ، أذوب فى زحام البشر والأشياء ، تدهسنى الأقدام ويرمينى شارع إلى آخر ، حتى أذبل وأموت فى طرقات المساء الخاوية ، فلا أنام حتى يطلع النهار ، لأن مثلى لا يعرف النوم ، ولا يعرف الوقت ، ولا يعرف له نهارًا من ليل ..

أنا لست أبدًا كالآخرين ..

تسمينى صغيرتى عندما تفكر فىّ أو تكتب عنى : السيد الموجود بلا موجود ، والمختفى دائمًا وأبدًا خلف ستائر العدم .. السرمدية ..

يُضحكنى أسلوبها الطفولى فى الكتابة عنى وعنها ، وجنونها فى التعامل مع نفسها والآخرين ، ففيها بعض من نزقى وجنونى ودهشتى ، وفىّ بعض من براءتها ونقائها واندفاعها ..

رغما عنى وعنها تعيش هى فى حياتى ، وأعيش أنا فى حياتها ..

قدرى هو ، وقدرها !

أنا ، الذى اخترت لنفسى اسمًا غامضًا يليق بعالم الظلام الذى أخرج منه وإليه أعود ..

أنا ، السيد (س) !

أتسلل إلى دنياها الصغيرة بلا استئذان ، أقتحم الأبواب والنوافذ مثل ريح تصفر ، وتدمر ، ثم أعود إلى شرنقتى فى النهاية ، وحيدًا ، جريحًا ، مهزومًا ..

أعرف عنها كل شىء ، منذ جاءت إلى هذه الحياة طفلة تصرخ لتستقبلها يدا أمها المنهكة ، وبسمة أبيها جراح المخ والأعصاب الشهير ، وليتفقا معًا على تدوين اسمها فى شهادة الميلاد ، فيرتبط مصيرى منذ تلك اللحظة بمصيرها ، لا يفرقنا إلا الموت ، والموت وحده ..

(نسرين) ..

(نسرين الجبالى) ..

(نسرين فاروق الجبالى) ..

منذ الطفولة وأنا ملاكها الحارس ، أخرج من كهفى لأحميها دون أن تشعر بى ، وأترك خلفى دائمًا الحرف الذى اخترته اسمًا لنفسى المعذبة ..

منذ طفولتها الحزينة عندما فقدت أمها فى حادث غامض لم تكتشف حقيقته بعد ، وإن كنت أعرف كل شىء ؛ لأن مهمتى الحقيقية هى أن أعرف كل شىء ، عنها هى بالذات !

عبر الطفولة حتى سنوات الصبا والمراهقة وأنا ظلها الذى لا يرتمى على الأرض أمامها فى ساعات الأصيل ، ولا يتلاشى مع دخول الليل ، حتى عندما ارتبطت بجارها الذى يعمل فى الشرطة ، وقررت أن تهب حياتها المهنية بحثًا عن المتاعب ، ولهاثًا وراء الكلمة والصورة والعنوان الكبير على صفحات دورية ، كنت هناك ، من مكمنى فى عالم الظلام ، أتابع كل شىء ..

حتى حانت لحظة الخروج من عالمى المظلم ، فى أول قضية تتولى البحث الصحفى عنها ، ولأنها كان يجب أن تنجح ، فقد وجدت نفسى أتصل بها ، وأمد لها يد العون ..

لماذا ؟!

ما من سبب محدد .. كان يجب أن أخرج ، فخرجت .. كان يجب أن أوجد ، فوجدت ..

ليتنى أعرف عن نفسى أكثر من هذا ، إذن لما ظللت غامضًا أمام نفسى على الأقل !

كان أنا يعيش فى عالمه الخاص ، يخرج منه ويعود ، تسألنى صغيرتى كلما حاولت الاتصال بها عن هويتى ، فلا أجيب ..

تخمن أننى ربما أكون والدها ، ربما أكون خطيبها ، ربما أكون أحد زملائها ، زميلاتها ، ربما أكون جانبًا مظلمًا من نفسها ، ربما أكون روح والدتها المتوفاة ، عمها المقيم فى الخارج ، أو فى الداخل ، ربما أكون كل هؤلاء معًا وربما لا أكون أيًا منهم ..

ليتنى أعرف !

كل ما أعرفه أنها بعد عودتها من (الولايات المتحدة) تحتاجنى بشدة ؛ لذا فعلىّ أن أخرج الآن من عالمى المظلم ، دون العودة إليه إلا عندما ينتهى كل شىء ، إذا كان لهذه المغامرة الخطيرة التى تهدد (نسرين الجبالى) فى صميم وجودها الاجتماعى أن تنتهى على خير مثل كل مرة ..

إن السيد (س) قادم ، وهو يستطيع فعل الكثير ، لكنه غير قادر على الإتيان بمعجزة فى مواجهة هذه (البصمة) الغريبة ، التى عثروا عليها فى ذلك المكان الغريب !

* * *

١ ـ معاهدة سلام ..

وطنى من جديد ..

هبطت الطائرة مخترقة بنا سواد الليل ، المرصع ببقع ضوء متناثرة فوق الأرض البعيدة .. أذناى تصفران مع تزايد الضغط ، والإرهاق قد بلغ بى أعلى ذراه .. (جيهان نصيف) إلى جوارى لم تستيقظ من نومها بعد ، وجهها حزين حتى وهى نائمة ، ومع اقتراب الأرض كنت أوشك على الموت تعبًا وأرقًا ، لكنى لم أجدها فكرة تستحق العناء الآن ؛ أعنى الموت على هذا الارتفاع .. سأموت فى يوم آخر أسوة بعنوان أحد أفلام السيد (جيمس بوند) الحديثة ..

فى المطار لم أستطع الوقوف فى طابور جوازات السفر .. تولت عنى (جيهان) هذه المهمة واستكانت ابنتها (إحسان) (حسناء بروكلين)(*) باعتبار ما كان ـ إلى جوارى .. مر دهر قبل أن نغادر المطار فى برودة الليل الخريفية ، ليستقبلنا أحدهم بسترة نصف أنيقة ، ويحمل عنا أمتعتنا القليلة ، وقد قدمتْهُ (جيهان) إلىّ بكلمات مقتضبة :

(*) أنصح بمراجعة المغامرة السابقة رقم (٨) التى تحمل نفس العنوان (حسناء بروكلين) ..

ـ (شعبان) ، سائقنا الخاص ..

قادنا (شعبان) إلى السيارة الفارهة الرابضة فى المرآب ، اندسسنا فيها ، ورغم إرهاقى القاتل سمعت غمغمة (جى جى) المُرة :

ـ هذا كل ما تبقى لنا من أيام الرفاهية !

سألتها (إحسان) وهى تمد يدها إلى مسجل السيارة :

ـ لماذا لم تحجز عليها المحكمة يا أمى ضمن ما حجزت عليه من ممتلكاتنا ؟!

قالت وهى تشير إلى (شعبان) الذى يفتح باب مقعد السائق :

ـ لأنها باسمه فى الأوراق الرسمية يا حبيبتى .. باسم (شعبان) !

انطلقت بنا السيارة ، وانطلق صوت (جلوريا جاينور) عبر إحدى محطات الإف إم الأجنبية يصرخ بالغناء الحماسى :

ـ لسوف أعيش ..

كنت خائفة فى البداية ..

كنت متحجرة ..

أفكر دومًا أننى لن أستطيع الحياة

بدونك إلى جوارى ..

لكنى قضيت ليالى طويلة

أفكر فى كل ما فعلته بحقى

فأصبحت الآن .. أكثر قوة !

توقفت السيارة فى شارعنا ، وودعتنى (جيهان) بعينين حمراوتين ووعد باللقاء قريبًا .. عبرتُ مدخل البناية وأنا أرمق باب غرفة العم (خضر) الموصد .. انطلقت السيارة خلف ظهرى وأنا أنظر فى ساعة معصمى .. الثانية صباحًا ، صحيح أن العم (خضر) البواب لن يتعرف علىّ لو رآنى بهذه الهيئة وهو ما أعتبره نصف الكوب الملآن ، لكنى لن أحتمل الآن أسئلة من أى نوع ، بالذات من النوع الذى يتعلق بهويتى مصحوبًا بنظرات الشك لن أقوى على درئها بتفسيرات مختلقة ؛ وأنا على هذا الحال من الإعياء ..

هكذا صعدت إلى المنزل فى خطوات بطيئة زاحفة لا تصدر عنها أدنى ضوضاء ..

باب منزلنا أخيرًا ، بعد أيام طويلة من الغربة والحنين فى بلاد بعيدة ..

أخرجتُ سلسلة مفاتيحى من جيب سترتى .. لو كان أبى هنا فلا أحب أن أزعجه فى مثل هذه الساعة ، رغم أن الظلام الدامس المطل من عين الباب السحرية يشى بعدم وجود أحد داخل الشقة فى هذا الوقت ، أما المظاريف المغلقة المثبتة ما بين حافة الباب والإفريز الخشبى فتدل على عدم وجود أحد فى المنزل طوال الأيام السابقة !

أمسكتُ بالمظاريف ونظرت إليها دون أن تقوى عيناى المنهكتان على تمييز فحواها على ضوء السلالم الخافت .. دار لسان الباب وتجاوزت عتبته ثم أغلقته .. مددت يدى إلى زر الإضاءة وضغطته ، وكدت أنهار ساجدة وباكية على أرضية منزلى ؛ إذ شعرت بالأمان أخيرًا بين جدرانه الدافئة ..

تماسكتُ وسرت الهوينى نحو مرآة الصالة المغبرة ، يبدو أن أحدًا لم يطأ الشقة منذ أيام طويلة بالفعل ، مسحت الغبار من فوق طبقة الفضة المصقولة بأصابع كفى ، ونظرت إلى ملامحى كأنى أتعرف عليها لأول مرة ..

لم تكن ملامحى لو أردت الدقة .. مددتُ يدى ونزعت شعرى الأسود المستعار الطويل ، وبإصبعى السبابة والإبهام نزعت العدسات اللاصقة الزرقاء من فوق قرنتى عينى ، أما طلاء الشفاه فمسحته بطرف سترتى ، ووقفتُ أنظر إلى (نسرين) القديمة التى أعرفها ..

(نسرين الجبالى) التى عذبت نفسها كثيرًا ، وآن لها أخيرًا أن تستريح ..

أن تعقد معاهدة سلام مع نفسها المتمردة ، لعل روحها القلقة تعرف مستقرًا لها أخيرًا ..

وضعت يدى فى جيب سترتى وأخرجت جواز سفرى الذى يحمل هويتى البديلة بملامحى البديلة ، وتذكرت وصية (كريم) ، ضابط الأمن الذى منحه إياى فى (واشنطن دى سى) :

ـ تخلصى منه فور وصولك إلى (القاهرة) !

ـ كيف ؟!

ـ احرقيه ..

فى المطبخ وجدت علبة ثقاب تبقى فيها عود واحد ، كان احتكاكه بطرفها كافيًا لكى تأكل النيران صفحات جواز السفر فى نهم حتى تذوى فى النهاية ، وبإلقاء الرماد فى سلة المهملات انتهت إلى الأبد هويتى المؤقتة كـ (حسناء أمين) ، وعادت (نسرين الجبالى) إلى العالم محاولة جعله مكانًا أقل إيلامًا لها ولغيرها ، كدأبها ..

منعنى فضولى من إلقاء نفسى فوق السرير والذهاب فى النوم على الفور كما كنت أخطط ، فعدت إلى الصالة أتفقد المظاريف المغلقة التى كانت محشورة فى حافة الباب ..

بالإضافة إلى فاتورة الهاتف والكهرباء والمياه والغاز وجدت خطابًا من صديقتى (مروة) ، قرأته أكثر من مرة حتى أفهم مغزاه ، وفى النهاية فهمت أنها لم تتلق منى أية رسالة من اللاتى أرسلتها إليها من (نيويورك) ، وبدلاً منها وصلتها بطاقات بريدية أنيقة على كل منها رمز (س) !

لا أفهم معنى لذلك ..

السيد (س) يواصل ظهوره الاستعراضى فى حياتى بالطريقة التى يراها هو مناسبة ، وهى أول النقاط التى يجب أن أحسمها بينى وبين نفسى قبل الشروع فى اتخاذ خطوات معاهدة السلام التى أنتويها ..

نقطة السيد (س) هذا ..

كيف ؟!

غدًا سأفعل كل شىء ، أما التفكير فقد انتهى بالفعل باتخاذ قرار ما ..

هناك أيضًا خطاب اعتذار من السيد الصحفى المعجزة (حسين مرشدى) الذى باعنى إلى عائلة (البحراوى)(*) بثمن بخس ، وتسبب فى محاولة قتلى الفاشلة والمحاولة الأخرى الناجحة بكل أسف فى القضاء على الصحفى الشريف (هلال رضا) .. الوغد يتعهد فى خطابه بألا يتعرض لى مرة أخرى ، ويقدم استعداداته للتكفير عن ذنبه فى حقى وحق القتيل بأى وسيلة ممكنة ، ليكفى نفسه شر الانتقام الذى يهدده فى كل لحظة من شخص مجهول ..

السيد (س) مرة أخرى ؟!

ربما ، فقد عودنى على التدخل فى حياتى سواء بعلمى المسبق أو جهلى المطبق !

ألقيت خطاب (حسين) جانبًا وتناولت مظروفًا آخر لا يحمل عنوانًا ، بداخله كانت رسالة مقتضبة من آخر شخص أتوقع أن يترك لى رسالة فى العالم كله ..

كلا ، ليس السيد (س) هذه المرة ..

إنه أبى ..

(*) راجع المغامرة رقم ٧ (ممنوع الاقتراب) ومقدمة المغامرة السابقة (حسناء بروكلين) !

« أنا مسافر فى رحلة طويلة ، اهتمى بنفسك وكونى أقل جنونًا ..

مفاتيح السيارة فوق منضدة السفرة »

هذا فحسب ..

مازال غاضبًا منى إذن بعد موقفى منه فى (نيويورك) ، وله كل الحق ..

آلمنى أن يسافر هكذا دون أن يخبرنى على الأقل أين هو أو متى سيعود ، لكنى سببت له ألمًا أكبر .. تركت رسالته جانبًا وأنا أفكر أننى غدًا سأرتق كل الفتوق فى ثوب حياتى المهلهل .. التفكير انتهى فعلا باتخاذ قرار ما ، وسأبدأ صفحة جديدة تمامًا سواء معه أو مع (هشام) أو مع ...

مهلا ، الرسالة الأخيرة منه ـ أعنى (هشام) !

كلمات أقل اقتضابًا ، ولكن ...

عزيزتى (نسرين) ..

لدى مهمة لأؤديها فى الصعيد ، جاءتنى الأوامر فجأة لذا لن أستطيع أن أكون فى استقبالك ..

سأعود بعد بضعة أيام ، وعندها سوف أهاتفك لأننى لن أستطيع الاتصال بك من هناك ..

لا أعرف أيضًا إن كان هاتفى المحمول سيعمل هناك أم لا ..

أتمنى أن تظلى بخير حتى أعود ..

ملحوظة : اهتمى بنفسك وكونى أقل جنونًا !! »

لقد اتفقا إذن على تركى وحيدة ، كأنهما يعاقباننى على تركى كل هذا الوقت وذهابى بحثًا عن ثأرى فى نهاية العالم ..

ربما اتفقا على هذا بالفعل : أن يتركانى أعانى شوقى لهما وحاجتى الشديدة لرؤية أى منهما ، الرجلين الوحيدين فى حياتى !

أنانية أنا ، لا أفكر سوى فيما أحتاجه ، ولتذهب إلى الجحيم حاجات الآخرين ..

ملأنى هذا الشعور بالنفور من نفسى .. لكن ، لن أترك الكراهية تأكلنى .. ستتصلح الأمور غدًا أو بعد أيام ..

لا شىء سوف يثنينى عن المحاولة بمنتهى الإخلاص ..

أما الآن ، فالمياه الساخنة سوف تنثال فوق رأسى ، والوسادة سوف تتبعج أسفل خدى حتى تنتظم أنفاسى فى نوم عميق .. طويل .. خال من الأحلام ..

وفى ظهيرة اليوم التالى سوف تبدأ أولى خطواتى نحو معاهدة السلام المزعومة ..

بمكالمتين هاتفيتين !

* * *

صحف اليوم التى اشتريتها عندما توقفت فى إشارة المرور ، انطوت تحت إبطى وأنا أهبط الدرجات نحو العوامة الطافية فوق سطح (النيل) ، والتى تحولت إلى عدة مطاعم ومقاهٍ حديثة فى عصر تسويق كل شىء ..

أنظر من وراء عويناتى يمنة ويسرة حتى أراها جالسة هناك ترشف فنجان قهوتها ، وتنظر فى ساعة معصمها ، ثم تشرد بعينيها مع طيور النهر ..

السيدة (ألفت همام) ..

شخصيًا !

هرولت ناحيتها ، وجذبت المقعد المواجه لها وأنا أقول دون أن أنظر فى عينيها مباشرة :

ـ آسفة .. هل تأخرت ؟!

دون أن أنظر فى عينيها مباشرة كنت أعرف أنها تسلط وهج عينيها الوضاءتين على وجهى ، وهى تقول فى وقار العظماء :

ـ عبارة متناقضة .. لو أنك موقنة من عدم تأخيرك لما كانت هناك حاجة بك للاعتذار !

أين سأذهب أمام عملاقة قضت ثلاثة أرباع عمرها فى لعبة الكلمات ؟!

ـ بضع دقائق فحسب !

قلتها ناظرة فى ساعة معصمى ، متحاشية النظر إليها حتى الآن ، كأنى أخاف أن ينتهى كل شىء قبل أن يبدأ ..

قالت السيدة (ألفت همام) بلهجة عملية سريعة الإيقاع :

ـ لا بأس .. المهم أن يكون الأمر يستحق ..

مفهوم ، مهاتفتى لها منذ ساعة تقريبًا وطلبى لقاءها فى مكان عام بعيدًا عن العمل يثيران فضولها حتمًا ، بعد كل

المياه التى جرت تحت جسور علاقتى بها ، وبعد كل الشد والجذب والعلاقات التى تكشفت والأخرى التى ظلت مجهولة .. لكنها فى نفس الوقت مازالت رئيسة التحرير التى تكلفها كل ثانية تمر دون عمل الكثير ، لهذا ترجو أن يكون الأمر يستحق .. ورغم أنى أعتقد أنه يستحق ، ورغم تقديرى لهبوط امرأة فى وزنها المهنى والاجتماعى من برجها العاجى كى تقابلنى هنا على حافة النهر ، إلا أنى لم أجد إلى الصراحة المباشرة سبيلا يسيرًا :

ـ بإذن الله ..

وضعت الجرائد المطوية ثم أمسكت بقائمة المشروبات والأطعمة لكى أدفن وجهى فيها :

ـ ماذا تشربين ؟!

فوجئت بيدها الباردة تطبق على أصابعى ، وبالقائمة تنخفض من فوق وجهى لتعرينى تمامًا ، وبعينى تقعان فى شباك عينيها كبعوضة فى نسيج عنكبوت :

ـ اليوم يجب أن يتم تسليم عدد الجريدة الأسبوعى إلى المطبعة .. تعرفين ضغط العمل فى هذا اليوم بالذات ، ومع هذا .. فهأنذا أترك كل شىء لأقابلك هنا !

وجدت نفسى أهتف بها فى حدة :

ـ هذا أبسط حقوقى عليك .. فأنا فى النهاية ابنة الدكتور (فاروق الجبالى) ، الرجل الذى ...

وبترت عبارتى نفسها فوق لسانى عندما لم تجد تتمة مناسبة ، فى مواجهة امرأة بحجم السيدة (ألفت) ..

هل أقول الرجل الذى تحبينه ؟! تعشقينه ؟! حتى أخف العبارات من نوع (الذى تربطك علاقة ما) لا تبدو لائقة أبدًا ..

هى أستاذتى فى بلاط صاحبة الجلالة فى النهاية مهما تداخلت المسائل الشخصية ، ولست من النوع الذى يفخر بإهانة أساتذته لأى سبب ..

ما عذبنى أكثر ، وجعل وجهى ينفجر بالحمرة الدموية ، أنها ابتسمت فى تسامح وهى تواجهنى فى صمت قاتل ، وتناولت إحدى الصحف المطوية لتفردها بيننا على الطاولة قائلة :

ـ أسعدنى خبر نجاحك الذى يملأ صحف اليوم ، وإن كان بصفة غير مباشرة !

كانت تشير إلى خبر إلقاء القبض على عائلة (البحراوى) الهاربة إلى (الولايات المتحدة الأمريكية) بمساعدة عناصر مصرية أمنية وصحفية دون ذكر لاسمى صراحة لدواعى الأمن، وعن مثول أفراد العائلة المتورطين فى جرائم مالية وجنائية، منها قضية الصحفى القتيل (هلال رضا)، وقد وجدت هذا فوق احتمالى فعدت أهتف بنفس الحدة، ووجنتاى تشتعلان أكثر:

ـ لماذا لا نتحدث بصراحة ما دام وقتك ثمينًا إلى هذا الحد ؟!

تراجعت السيدة (ألفت) بنفس بسمتها المتسامحة، وعقدت ساعديها أمام صدرها قائلة فى تحمل:

ـ ليكن، لا مانع لدى .. هل تحبين طريقة السؤال والإجابة ؟! أم أتحدث على الفور ؟!

فتحتْ شهيتى لقول العبارات التى ظللت أجهزها فى عقلى طوال رحلتى من (واشنطن) إلى (القاهرة) مرورًا بـ (أمستردام):

ـ ليست هناك مسائل شخصية بيننا .. ربما تظنين أن وراء تركى لجريدتك أو طلبى للقائك ما يتعلق بغيرتى على أبى

أو تعلقى بذكرى والدتى، لكن هذا خطأ بين .. ما يعنينى هو أنا فى المقام الأول .. سؤالى الوحيد الذى أريد توجيهه إليك مهنى بحت، هو: لماذا ؟! لماذا خدعتنى ؟!

لماذا تبدو الكلمات حين نصيغها فى عقولنا ناطحات سحاب، فإذا ما نطقنا بها تحولت إلى أكواخ خشبية متهالكة ؟!

تحملتْ السيدة (ألفت) كلماتى، قبل أن تقول ببسمتها التى بدأت أكرهها، وهو ما يهدد معاهدة السلام التى أزمع إبرامها فى الصميم:

ـ الخداع يتضمن أن أوهمك بشىء غير حقيقى، فهل فعلت هذا حقًا ؟!

انطلقتْ كمدفع رشاش:

ـ أوهمتنى بأنى أفضل صحفية فى العالم .. نشرتِ لى فى جريدتك الملاكى تحقيقات على صفحات كاملة ووضعتِ اسمى بأسمك الخطوط لديك وأنا لا أزال طالبة فى كلية (الإعلام) .. وفى النهاية كلفتنى بمهام منصب رئيسة قسم التحقيقات مرة واحدة .. الجميع كانوا يعلمون الأسباب الحقيقية فيما عداى، والمشكلة أنى لم أسأل نفسى مرة واحدة: لماذا ؟!

ـ الإجابة بسيطة .. أنت تستحقين .. موهوبة ونشيطة ولماحة وكثيرة الحركة .. لم أكن لأغامر بمستقبل صحيفتى لو أنك غير كفء للاضطلاع بما أسندته إليك ..

ـ فقط ؟!

ـ فقط !

ـ أعنى لو أن أى أحد كان فى موضعى ، هل كنت ؟!

قاطعتنى بحركة من كف يدها ، ثم قالت دون أن تزول بسمتها ودون أن تعلو نبرتها أو تكتسب طابعًا غير حميمى :

ـ تتحدثين الآن عن العدالة فى هذا العالم .. حسنًا .. قولى لى أين هى وسأدفع فيها عمرى .. يأتينى فى اليوم عشرات الشبان الموهوبين والنشطين بأفكار تطمح إلى تغيير سطح الكرة الأرضية ، مفعمين بطاقة تكفى لنسف الجبال .. ومع هذا أعلم أننى لن أستطيع الوفاء بحقوق الجميع ، وسأمنح الفرص إذ أمنحها استنادًا إلى صدف قدرية فحسب .. لا تحدثينى عن العدالة وحدثينى عن القدر .. جريدة (الأربعاء) هى أكثر الصحف الأسبوعية المستقلة توزيعًا ونجاحًا ، قدر .. يثير هذا الرغبة الكامنة فى أعماق صحفية شابة مثلك تطمح للنشر ، قدر .. هو أول

الأبواب التى تطرقينها ، قدر .. أن أكون صديقة قديمة لوالدتك وعلى معرفة بعائلتك دون أن تعرفى ذلك إلا متأخرًا ، قدر .. إنه القدر الذى يجعل رئيس أقوى دولة فى العالم محض إمعة منصاعة لأوامر الأب والعائلة وأصدقاء العائلة .. لو لم يكن ابنًا فى هذه العائلة بالذات هل كان ليصبح رئيسًا استنادًا إلى موهبته فقط ؟! هكذا تسير الأمور فى الدنيا كلها يا عزيزتى ، القدر وحده يدفعنا للأمام مهما ادعينا السيطرة على مقدرات حياتنا .. المهم أن القدر منحنى هذه المرة ابنة حقيقية أفخر بكونى مكتشفتها الأولى فى عالم الصحافة ..

أين سأذهب أمام عملاقة لعبة الكلمات ؟!

قلت فى شرود :

ـ هل أنتِ من اختار لى اسمى حقًا بعد ولادتى مباشرة(*) ؟!

اتسعت بسمتها ، وتألقت عيناها أكثر ـ ربما بفعل نشاط مباغت للغدد الدمعية ـ قبل أن تقول :

ـ للحكاية جذورها العميقة .. ليتنى أستطيع أن أروى لك كل شىء ، إذن لاسترحت .. لكنى لا أستطيع ، والدك هو المفروض أن يروى لك كل شىء ..

(*) راجع جزلى (إخوة الدم) ، العددين رقم ١٦ و١٧ من سلسلة (سلة الروايات) ..

ـ هكذا تسير الأمور فى عالم مثالى !

ـ هل ستكتبين تحقيق مغامرات (س) القادم فى جريدتى إذن ؟!

سألتنى فى أمومة ، فقلت بعد تنهيدة :

ـ ليتنى أعرف ، أعتقد أننى سأحتاج إلى وقت للتفكير ..

كلماتها شجعتنى ..

من الجميل أن تشعر أحيانًا بأن قوتك الحقيقية تكمن فى داخلك ، وأنك لا تستمدها من الآخرين بشكل مستمر ، لو نحينا الصدف القدرية جانبًا ..

ـ نصيحتى لك ألا تأخذى فى التفكير وقتًا طويلا ..

قالتها ، ثم أتبعت مستطردة :

ـ سنوات عملى الطويلة فى بلاط صاحبة الجلالة علمتنى الكثير ، ولعل أهم ما تعلمته يتجلى فى عنوان جريدتى الذى يبدو للوهلة الأولى سطحيًا بلا معنى .. (الأربعاء) .. الجريدة الأسبوعية التى تصدر يومًا واحدًا فى الأسبوع ، هو يوم الأربعاء .. مهما حدث ـ باستثناء فناء العالم ـ يجب أن تصدر الجريدة فى هذا اليوم .. ليعيش من يعيش وليموت من

يموت ، المهم أن تصدر الجريدة .. الصحافة أشبه بقطار ينطلق ماضيًا فى طريقه على قضبان حديدية ، من يُرد أن يركب فليركب ، ومن يُرد أن يلهث راكضًا خلفه فليركض وليلهث وليقفز بداخله إن استطاع به لحاقًا ، ومن يُرد أن يفوت ركوبه فليفوته ، المهم أنه لن ينتظر أحدًا ..

قانون الصحافة المرعب ، هكذا فكرت ..

وتذكرت قصة قد تبدو للوهلة الأولى غير ذات صلة ، تروى عن الصحفى المبتدئ الذى كان يغطى حادثة إعصار دمر إحدى القرى الأمريكية ، وكتب إلى جريدته تحقيقًا يبدأ بالعبارة التالية : (جلس الرب على سطح أحد المنازل يرقب الدمار الذى أحدثه إعصاره بالقرية) ، فما كان من رئيس تحرير الجريدة إلا أن أبرق إليه على الفور قائلا : (انس أمر الإعصار ، ولتأت لنا بحوار صحفى مع الرب !)

المغزى : الصحافة قطار لن ينتظر أحدًا ..

ـ آسفة إن كنت أهدرت وقتك الثمين ..

قلتها وأنا ألملم صحفى وأستعد للنهوض ، فنظرت إلى السيدة (ألفت) بحاجبين معقودين ، وسألتنى :

ـ إلى أين ؟! ألن تشربى شيئًا ؟!

قلت وأنا أنظر إليها مباشرة ، دون خوف من وهج عينيها هذه المرة :

ـ سأذهب لكى أحسم أمرى .. إما أن أقفز فى القطار ، أو أفوته ..

انعقد حاجباها أكثر ، وسألتنى بفضول صحفى لا تخطئه الأنف :

ـ وأين هذا المكان الذى يحسمون فيه الأمور ؟!

جاء دورى لكى أبتسم أخيرًا ، وقد خفت حقًا من أن يتشقق جلد وجهى ، فلم أبتسم منذ قرون طويلة :

ـ ليتنى أستطيع أن أروى لكِ كل شىء ..

رقصت البهجة فى عينى السيدة (ألفت) ، كأنها تراقب ابنتها التى تخطو أمام عينيها فوق الأرض لأول مرة ..

ـ إذن لاسترحت !

هكذا تسير الأمور فى عالم مثالى !

* * *

٢ ـ عالم مثالى ..

اخترقتُ بى السيارة الشارع شبه الخالى على هضبة (المقطم) المرتفعة ، حتى أوقفتها أمام السور العالى الذى تطل منه قمم أشجار جفت أوراقها ، فأسقطتها أيادى الخريف الصفراء ، ومن ورائه ظهر مبنى مربع منخفض من طابقين ، يحمل لافتة عريضة تشير فى وضوح إلى أنها (مصحة الدكتور مشهور فراج للعلاج النفسى) ..

الدكتور (مشهور فراج) لمن يذكر هو أشهر طبيب نفسى فى البلاد .. ومن يذكره جيدًا فاربما يتصور قوامه الربعة وشعره الفضى وحاجبيه الأسودين وأناقته الأكاديمية ولهجته الريفية التى حلل بها أغوار نفسى السحيقة فى نهاية مغامرتى مع (إخوة الدم) ، وربما سينكر أيضًا أنه كان ولا يزال من أصدقاء أبى المهنيين الذين فرقتهم دروب الحياة والمشاغل الجمة ..

كانت الشمس تسرع فى طريق مغيبها الحتمى ، عندما دوّن ضابط الأمن على البوابة بياناتى فى دفتر كبير ثم تركنى أدخل ..

كنت أعرف أن الدكتور (مشهور) هنا لأنى هاتفته هذا الصباح بعد أن هاتفت السيدة (ألفت) ، وهو الذى طلب منى

أن ألقاه فى هذا المكان الذى لم ألجه وربما لم أعرف بوجوده من قبل ، هذا بعد أن استغرق بضع دقائق ليتذكر من أنا أصلاً ..

لم أقابله منذ وقتها ، والوقت قد حان أخيرًا ..

اجتزتُ الحديقة الصغيرة المنسقة .. الأطبـاء الصغـار والممرضات يروحون ويجيئون ولا أثر لمريض أو مريضة .. رفعتُ عينىّ إلى المبنى فأحرقهما انعكاس ضوء الشمس على زجاج النوافذ .. فى الداخل كان مكتب المدير موصدًا ، فأوقفت إحدى الممرضات وسألتها :

ـ أين أجد الدكتور (مشهور) ؟!

أشارت إلى أعلى :

ـ يمرّ على المرضى فى الطابق الثانى ..

ثم اختفت فى سرعة ، فاتجهت من فورى إلى هناك ..

نظرة وأخرى على الغرف المتراصة ثم لمحت كتفيه العريضتين من الخلف .. كان منهمكًا فى مراجعة ملف ملىء بالأوراق ، فى وقفته إلى جوار واحد من أسرة المرضى .. ودون أن أشعر تقدمت منه هاتفة كأنى أستغيث به :

ـ دكتور (مشهور) !

ألقى نحوى بنظرة طالت ، فهمت منها أنه لم يتعرف على للوهلة الأولى ..

ـ أنـا (نسـرين) .. (نسـرين الجبالى) ابنـة الدكتـور (فاروق) ..

انفرج وجهه أخيرًا ، وتحولت ملامحـه إلـى ترحـاب فـاق كل توقعاتى :

ـ أهلاااااان .. كيف حالك يا فتاة ؟! وكيف حال والدك ؟!

ـ بخير ..

قلتها فى بسمة فتاة مهذبة ، وكدت أتبع بعبارة تلقائية مرحة لكن نظراتها جعلتنى أبتلع لسانى ، وأنسى كل شىء سواها !

نظراتها : تلك الجالسة على مقعد وثير بجوار السرير الخالى والمرتب فى عناية ، والتـى ترتـدى ثوبًـا أبيـض وتغطى رأسها بوشاح وردى ..

نظراتها ..

ليس فيها إلا عينان فحسب لو جاز التعبـير ، وهـو جـائز جدًا لأنه ليس من قبيل المبالغة ..

تلك المرأة لا وجه لها !

طبقات جلد وجهها متغضنة ومتآكلة ، كأنه عيب خلقى أو ...

ـ تعالى معى إلى مكتبى يا (نسرين) ، أما أنتِ يا (سهير) فسوف أعود إليكِ لاحقا ..

(سهير) ؟!

★ ★ ★

داخل مكتبه ، استمع الدكتور (مشهور) فى صبر الإبل إلى نظريتى المجنونة حول نشأة السيد (س) كانعكاس أسود فى أعماقى لكل سنوات عمرى الحافلة بالحرمان العاطفى والعقد النفسية ، وعندما انتهيت من الحديث ومن شرب كوب الشاى الذى أصر على طلبه لى ، انتظرت أن يتكلم ، لكنه آثر بلاغة الصمت ، حتى تنهد فى النهاية مطرقًا ..

سألته كأنى أجرجره إلى ساحة الكلام عنوة :

ـ هل تعتقد أنى مصابة بحالة من الانفصام يا دكتور ؟! بمعنى أن السيد (س) هذا ربما يكون وهمًا صنعته وصدقته ، وجعلته يتحرك ويصطاد الأدلة ويتهجم على

الناس ، فى حين أننى أنا التى تفعل كل هذا بهوية أخرى ، أو شخصية أخرى ..

عاد يتنهد ، قبل أن يقول ناظرًا نحوى بعينين لا تعكسان شيئًا :

ـ لو أنك تفوهتِ بهذا الكلام فى القرون الوسطى لما لقيتِ عقابًا أقل مما لقيته (ساحرات سالم) !

الحرق ، هكذا يقصد صديق أبى بمنتهى التهذيب !

ـ الحقيقة أن الأمور لم تختلف كثيرًا عن وقتها ، فما زالت شوائب الدجل والشعوذة والخرافة عالقة بذيول الطب والعلاج النفسى تأبى أن تتركه يتحرك بحرية .. تصورى أن العلم نفسه قد تحول إلى هرطقة بالنسبة لبعض الناس يستحق صاحبه أن يحرق كساحر مريد ..

ـ جميل ، ولكن ...

كدت أسأله عن علاقة ما يقوله بسؤالى ، لكنه قصّر على المسافة :

ـ مبدئيًا هناك جدل دائر حتى الآن حول حقيقة موضوع الانفصام فى الطب النفسى .. هذا بعيدًا عن حقيقة كون الفصام أو الـ Schizophrenia مرضًا مختلفًا تمامًا عما يحمله

التعريب من روح الانقسام أو الانفصال .. إننا هنا نتحدث عن اضطراب تعدد الشخصيات Multiple personality disorder أو مـا يطلـق عليـه الأمريكـان اضطـراب تفكـك الهويـة Dissociative Identity disorder .. وحالـة الجدل مـا بين مؤيد ومعارض تدور هنا حول إن كـان هـذا الاضطـراب مرضًا نفسيًا يستحق العلاج ، أم أنه محض ظاهرة منتشرة بين البشر جميعًا بدرجات متفاوتة !

بدأ الحديث يثير انتباهى ، والدكتـور (مشـهور) يتراجع فى مقعده كأنه يحاضر أمام طالبة مفتونة :

ـ لا أحد يستطيع أن ينكر وجود هذه الحالة ، وانتشارها بالذات بين من يملكون تاريخًا صحيًا يشير إلـى حرمـان أو استغلال فى فترة الطفولة ، لكن المشكلة الحقيقية تكمن فـى وجود أدلة مادية يستطيع الطب النفسـى الاتكـاء عليها مـن أجل التشخيص والعلاج .. هناك اختبارات كثيرة تتم بالتنويم المغناطيسى وبقع (روشاخ) الحبرية وتفسير الأحلام ، لكن كل هـذا لم يجعل للحالة أسـانيد علمية قوية .. المهـاجمون لكونها حالة طبية مهمة ، لهم حججهم الوجيهـة ، فـالمرض يعتمد على قابلية الإيحاء أكثر مما يجـب ، روايـة (الدكتـور جيكل ومستر هايد) جعلت المسألة هوسًا إعلاميًا ، والأفـلام والروايات المبنية عليها أصبحت أكـثر ممـا نستطيع عده ،

وهكذا فهم يعتقدون فى بطلان صحـة التشـخيص ويطـالبون بالتحرر من أسر المعتقدات القديمة .. فما رأيك أنتِ ؟!

بوغت بالسؤال ، فأجبت فى جمود :

ـ وكيف لى أن أعرف ؟! أنا هنا لكى أسأل !

ـ أنت وحدك من يملك الإجابة .. ابحثى عنها فى أعمـاق نفسك ولا تنشغلى بـالبحث عن تلك الشـخصية الوهميـة .. ابحثى عن (نسرين الجبالى) ثم ابحثى عن السيد (س) ، فعندما تعثرين على نفسك قد لا يهمك العثور عليه إلـى هـذا الحد ..

لم آت إلى هنا لسماع محاضرة طبية ونصيحـة مبهمـة ، ولم أخجل من التصريح بهذا :

ـ كنت أظننى سـأجد لديك ما يعيننى على فهـم نفسى أكثر !

ابتسم الدكتور (مشهور) فى أبوة ، وقال :

ـ إن كان مغزى حديثى لا يزال مبهمًا فسأحاول توضيحه أكثر ..

ـ فى الحقيقة ، هو مبهم بشدة !

ـ ما أردت قوله هو أنـه ربما يكون هناك وجود فعلى للسيد (س) هذا وربما لا ، ماذا سيفيدك لو عرفتِ ؟! ليت فى حياتى أنا شخصيًا من يسهل على كل شىء ويحل لى كل المشاكل وينقذنى قبل الوقوع فى التهلكة مثل بطلك الغامض هذا .. تخافين أن تكونى مريضة نفسيًا ؟! من حديثى معك أرى أنك لست شخصية معقدة إلى هذا الحد ، بل على العكس .. إنك أشبه بكتاب مفتوح أمام الجميع .. ولو كنتِ تتوقعين جلسة مريحة على الشيزلونج مع موسيقا وجهاز تسجيل فدعينى أخبرك أن عهد التحليل النفسى المبارك الذى ابتدعه خالد الذكر (سيجموند فرويد) قد ولى إلى غير رجعة ، والذى كانت نهايته الحتمية أن تقع المريضة الشابة فى حب طبيبها الكهل ..

ضحك واضطررت أنا إلى الضحك مثله برد فعل منعكس ، وأتبع هو :

ـ منذ متى لم أقضِ مع مريض وقتًا طويلا كهذا الذى قضيته معك الآن ؟!

استرقتُ نظرة إلى ساعة معصمى وتعجبت : الوقت الطويل الذى يتحدث عنه لم يكن أكثر من بضع دقائق .. كأنه يدعونى للانصراف وعدم تعطيله أكثر من هذا ، بمنتهى التهذيب !

ـ ليكن ، أشكرك يا دكتور على وقتك ، وأستأذنك فى الانصراف ..

لم يصر على بقائى كما أتوقع ، أو ربما كما أتمنى :

ـ لا بأس ، ونصيحتى الأخيرة لك ألا تُدخلى نفسك فى دوامة قد لا تخرجين منها إلا وأنت مريضة بالفعل ..

هززت رأسى فى تفهم ، إنه يتحدث عن معاهدة السلام الذاتية دون أن يذكر ذلك صراحة .. ماذا سيترك لى لو قال كل شىء ؟! هكذا فكرت ، أو لعلى كنت أواسى نفسى ..

صافحته فى بسمة ممتنة :

ـ أشكرك يا دكتور ، سأتذكر كلماتك جيدًا ..

قال فى ترحاب :

ـ أهلا بك فى أى وقت كابنة أو صحفية ، لكن ليس كمريضة .. بالمناسبة ، أين والدك النذل هذا ؟! لم أره منذ دهر تقريبًا !

من المؤلم أن أخبره بأنى لا أعرف له مكانًا الآن ، لكن نبرة الدعابة قد تجعل الأمر مستساغًا :

ـ تصور أننى أنا ابنته ، لا أعرف مكانًا الآن ..

ضحك ملء شدقيه (نجحت حيلة الدعابة) ، وهتف :

ـ كنا نسميه (عاشق المخ) أيام الكلية .. كان الله فى عونك يا بنتى ..

استدرت مغادرة المكتب بعد عدة عبارات ختامية قد لا يكون لها فائدة إلا ملء بضعة سطور أخرى من هذه المغامرة ، وفور اجتيازى الباب لمحتها هناك ، عند السلم الصاعد إلى أعلى ..

المريضة ذات الوجه المتآكل والعينين الثاقبتين ، والتى كان اسمها ...

ـ (سهير) ؟!

غمغمت بها فى ذهول ، وكدت أسير نحوها لكنها بمجرد أن لمحتنى أفعل هرولت صاعدة إلى أعلى ، الأمر الذى جعلنى أقف ذاهلة بضع لحيظات ، قبل أن أعود إلى غرفة مكتب الدكتور (مشهور) التى لم تنغلق خلفى بعد ..

ـ إحم ، معذرة يا دكتور ، ولكن ...

يبدو أننى قد قطعت عليه بداية اندماجه فى قراءة أوراق ما ، فقد رفع نحوى عينين منزعجتين ، قبل أن يجاهد لكى يقول فى دبلوماسية :

ـ خيراً يا (نسرين) .. هل نسيت أن تخبرينى بشىء آخر ؟!

قلت فى سماجة علمتنى إياها مهنتى :

ـ اعذرنى لفضولى الصحفى المقيت ، لكنى أريد أن أسألك عن المريضة التى كنت تعاينها فى الطابق الثانى ..

ضيق عينيه وهو يتلفظ باسمها :

ـ (سهير) ؟!

ـ هى بعينها ..

ـ هل لفت نظرك الحرق الذى حل بوجهها وأضاع ملامحها ؟!

هززت كتفى وقلت :

ـ لا أعلم ، تبدو غريبة الأطوار ..

قال دون أن يفلت الأوراق من بين يديه :

ـ إنها كذلك بالفعل .. منذ ذلك الحادث الذى أضاع معالم وجهها وهى فاقدة للقدرة على النطق .. أودعها ذووها هنا منذ سنين ويطمئنون عليها هاتفيًا فقط من آن لآخر ، وهم من يتكفلون بمصاريف إقامتها وعلاجها .. الأكثر غرابة أنها تختفى من غرفتها لساعات طويلة تمتد أحيانًا لأيام ، لكنها تعاود الظهور فى النهاية ، دون أن يراها أحد وقت

المغادرة أو العودة ، لا الأطباء ولا الممرضون ولا حتى حراس الأمن .. بالمناسبة هذا الكلام ليس للنشر ، فأخلاقيات مهنة الطب تمنع إفشاء أسرار المريض على الملأ كما تعلمين ، رغم أنى لا أعتبر هذه أسرارًا لأن طاقمى الطبى هنا يعرفها جيدًا ..

سألتُه فى لهفة وأنا أكاد أعاود الجلوس أمامه :

ـ حدثنى عنها إذن ، من هي ؟! ومن هم ذووها ؟! و ...

قاطعنى باسمًا قبل أن أجلس :

ـ لا أستطيع بكل أسف ، إن فعلتُ فهو الخرق الصريح لأخلاقيات المهنة ومبدأ الحفاظ على سرية المرضى ..

غمرتنى خيبة الأمل ، ومع هذا فقد شكرته مجددًا ، ولم ينس هو هذه المرة إغلاق الباب عليه جيدًا ، بالقفل من الداخل !

قاومت فكرة الصعود لها ورؤيتها فى غرفتها بالطابق الثانى .. فى الغالب هزمنى خوفى من أن أفعل ، وكل ما كنت أفكر فيه وأنا أغادر المصحة هو تلك المصادفة الجهنمية التى جعلتنى أرى هذه المرأة اليوم ، وتلك المصادفة الأخرى التى جعلت بحرف الـ (س) يكوّن أول حروف اسمها ، مثل أمى ، رحمها الله !!

* * *

وحدى على مقهى (بينوز) الأثير فى اليوم التالى ..

أبى لم يعد ولم يتصل .. (هشام) لم يعد ولم يتصل .. والحياة تجمدت كبحيرة فى (أنتاركتيكا) ..

معى دفتر كبير وأقلام كثيرة ، أحاول استعادة متعة الكتابة البدائية بعد أن حاولت الجلوس أمام جهاز الكمبيوتر فاستعصت على الكلمات ..

أحاول كتابة ما جرى لى فى (نيويورك) مع السيد (س) ، لكن الكلمات مازالت بعيدة ..

وجدت نفسى أمارس هوايتى فى تلخيص المهام التى يتعين علىّ القيام بها فى الأيام القادمة على آخر صفحة فى الدفتر :

- أصالح أبى ..
- أعاون هشام على تجهيز المنزل من أجل أن نتزوج قريبًا ..
- أكتب مغامرتى مع السيد (س) فى (أمريكا) ..
- أجمع شمل الصديقات فى جلسة من جلسات ما قبل سفرى ..
- أثبت صندوق بريد خشبيًا فى مدخل بنايتنا حتى لا تتحشر الرسائل فى طرف الباب مرة أخرى ، وحتى لا تراود أى شخص نفسه بأخذها ، فيأخذها دون أى مساءلة !

● أحاول الاتصال بـ (جيهان نصيف) ودعوتها على الغداء ..

● أشهد فى جلسة محاكمة (جلال البحراوى) الخاصة بقتلـه لـ (هلال رضا) الأسبوع القادم ..

بالنسبة للنقطتين الأخيرتين ، فـ (جيهان) لا ترد على مكالماتى لهـا منذ أمس ، والحق أنـى أعذرها ، لابد أنها تجاهد من أجل حياة بخسائر أقل تحت ظل ظروف قاسية لم تعتدها مسبقًا ..

أما عن وضعيتى كشاهدة عيان ، فقد وجدت استدعاء النيابة أمس عندما عدت إلى المنزل ، ولسوف أفعلها عن طيب خاطر من أجل ذلك الرجل الشجاع الذى لم أستطع مساعدته كى يبقى على قيد الحياة ، فلا أقل من أن أسهم فى أن ينال قاتله القصاص العادل ..

بالنسبة لأبى فسوف أنتظر عودته بفارغ الصبر كى أحاول استعطافه بأية وسيلة ممكنة ، أما (هشام) فلا أدرى لماذا أفتقده إلى هذا الحد ، ولا أفهم لماذا ألوم نفسى بشدة على كل القسوة التى بدرت منى تجاهه .. أول ما سأفعله عندما أراه أن أطلب منه تحديد موعد زفافنا الذى تأجل طويلا ، وسأهبط من عليائى أخيرًا كأى فتاة عادية ، لأساعده فـى تجهيز المنزل وشراء السجاجيد وملاءات السرير وأوانى الطهى .. آن الأوان

لآخذ دورى فى دائرة الحياة ، أتزوج وأنجب وأتشاجر مع زوجى بسبب أو بدون بسبب ، كفانى هربًا من كل شىء ..

الصحافة تجرى فى عروقى ، لهذا أصر على كتابة التحقيق الجديد ، وإن كنت لم أحسم أمرى من حيث عودتى إلى جريدة (الأربعاء) أو انتظار فرصة أخرى .. عندما أنتهى من الكتابة التى لم تبدأ بعد سوف تحل هذه المشكلة نفسها بنفسها ، وسيجد التحقيق مكانه للنشر ..

هكذا سيبدو العالم مثاليًا ، فمثاليته لا تكتمل إلا بنقائصنا الصغيرة ..

تعبت من انتظار الكلمات فلملمت أغراضى ودفعت حسابى وانصرفت من المقهى مع أول بشائر الليل البنفسجية ، وعندما توقفتْ سيارتى أمام البناية التى أسكن فيها ، وجدتُ بوابها الوجيه عم (خضر) ينتظرنى هاشًا باشًا ، وكانت المرة الأولى التى أراه بعد عودتى من السفر ، وعندها فقط شعرت بأنى قد عدت ..

ـ الحمد لله على السلامة يا (نسرين) هانم ..

ـ سلمك الله ، ما كل هذه الابتسامة التى تلتهم وجهك ؟!

سألته متعجبة ، فهو لا يجود بهذه البسمات مجانًا دون غرض ، كأى فعل آخر يصدر منه ، وأنا لست ممن ينفحونه بالبقشيش السخى دون سبب فلم يكن يتعطف على ببسماته إلا لمامًا .. المهم أنى فوجئت به يشير إلى نقطة ما خلف ظهرى :

ـ هناك أحد البكوات ينتظرك منذ ساعة ، وربما أكثر ..

أحد البكوات ؟!

استدرت أنظر إلى حيث أشار ، وفوجئت على الطوار المقابل بسيارة (مرسيدس) فضية فارهة لم أنتبه لوجودها إلا الآن ، ولأنها تقف فى الممنوع فقد أثار سائقها أضواء الانتظار المتقطعة ، فى حين هبط شخص ما من المقعد المجاور للسائق ، واتجه نحونا مسرعًا فيما أغمغم أنا :

ـ من هذا ؟!

همس عم (خضر) فى أذنى :

ـ السيارة عليها لوحات جمركية .. وقد نفحنى البك الذى يقترب بورقة من ذوات المائة جنيه مرة واحدة ..

أقلقنى قوله أكثر ، مع وضوح ملامح البك الذى يقترب على حد تعبير العم (خضر) ..

لم أكن أعرفه ، وكان براقًا إلى حد يعشى البصر .. وجه وسيم وحليق ، شعر أسود فاحم طويل مثبّت بـ (جل) قوى لامع ، بذلة قماشها زيتونى براق يتوهج تحت ضوء مدخل البناية ، والعطر الفاخر يملأ على حواسى ، ويثير فىّ ريبة أكبر ..

ـ أنتِ الأستاذة (نسرين الجبالى) ، أليس كذلك ؟!

الأستاذة ؟!

أعجبنى اللقب وخفف من ريبتى قليلا ..

ـ بلى ، أنا هى ..

ـ اسمى (شريف) .. أعمل مديرًا لأعمال شخصية هامة تريد لقاءك من أجل عمل ..

الريبة من جديد :

ـ من ؟!

ـ تفضلى معى وسوف تعرفين !

كلا ، لا تبدو فكرة وجيهة إلى هذا الحد أيها المتأنق .. ربما كان فخًا جديدًا تنصبه لى عائلة (البحراوى) ، ولست على استعداد أبدًا لمغامرة أخرى معهم من هذا النوع ..

قلت فى تحد :

ـ لن أستطيع .. أنا لا أذهب لمقابلة من لا أعرفه ، إن كانت هذه الشخصية الهامة تريدنى من أجل عمل لتتفضل ولتأتِ لى هنا .. أنت تعرف العنوان ..

تضرج وجه (شريف) بالحمرة ، وهو يقول كعذراء ليلة زفافها :

ـ إنك لا تعرفينها .. ليس من السهولة أن تهبط من الفندق الذى تقيم فيه ..

ـ أخبرنى إذن من تكون هذه الشخصية ..

ـ لا مشكلة ، إنها أميرة عربية تريد لقاءك ، هذا كل شىء !

كيف أضمن أنه يقول الصدق ؟! ومن جهة أخرى ، لا تبدو فكرة لقاء أميرة عربية من أجل (عمل) سيئة إلى هذا الحد .. الطموح فى أعماقى يصرخ بى أن أذهب ، والخوف المبنى على تجربة سابقة يهيب بى أن أتريث ..

فماذا أفعل ؟!

نظرت إلى العم (خضر) وحسمت أمرى على الفور ..

وفى الدقيقة التالية كنت أنا وهو نركب معًا على أريكة (المرسيدس) الخلفية المنطلقة بنا فى سرعة ، ذلك بعد أن نفحته فى نوبة كرم مفاجئة بورقة أخرى من ذوات المائة جنيه ، فكان العم (خضر) على استعداد تام لكى يبيعنى ضميره ، إن استطاع إلى ذلك سبيلا !

* * *

ـ مرحبًا بك ، لقد تخيلت أن (نسرين الجبالى) التى سأقابلها سوف تكون أكبر سنًا بكثير !

فى حضرة الأميرة العربية الشابة ، داخل جناح فخم من أجنحة الفندق المطل مباشرة على النيل ، أجلس فى فخر على أريكة وثيرة ، أمامى قهوة مصبوبة فى فنجان من نحاس ، فوق طاولة منحوتة من الأرابيسك ، وفى مواجهتى هى بثوبها الأنيق ، وغطاء رأسها المنحسر إلى الخلف قليلا ، والأساور الذهبية التى تكسو ذراعين مخضبين برسوم الحناء التشكيلية الدقيقة ..

ـ أنا الأخرى تصورت أن الأميرة التى ستقابلنى لن تتحدث اللهجة المصرية بهذه الطلاقة !

ضحكت كاشفة عن أسنان لؤلؤية متساوية ، قبل أن تقول :

ـ هذا لأنى أعشق (مصر) منذ طفولتى .. هذا الجناح الخاص فى الفندق محجوز باسمى طوال العام ، وفى بعض الأحيان أقضى أكثر من ستة شهور متصلة هاهنا ..

رشفت من القهوة فلسعت مرارتها لسانى ، وقلت متجاوزة رغبتى المفاجئة فى التقيؤ :

ـ لم أتشرف باسمك بعد ..

انحسرت شفتاها الرفيعتان عن أسنانها البيضاء إلى درجة مستفزة :

ـ (سماهر) .. الأميرة (سماهر) ..

أثرت الولوج فى الموضوع دون تأخير ، فالعم (خضر) كان ينتظرنى فى بهو الفندق ، وسوف يجعلنى أدفع حساب كل الطلبات التى تناولها فترة غيابى هاهنا :

ـ أخبرنى مدير أعمالك (شريف) أنك تريدننى فى عمل ..

هزت رأسها فى عظمة الأميرات :

ـ هذا صحيح .. لقد قرأت لك مسبقًا عددًا من التحقيقات فى جريدة (الأربعاء) حول تلك الشخصية الغامضة ، السيد (س) .. وقد أعجبنى أسلوبك فعلاً ..

أثلج صدرى قولها ، فعبارات الإطراء تجعلنى أحلق فوق السحاب :

ـ شرف لى أنك قرأتِ التحقيقات ، وشرف أكبر أنها أعجبتك ..

ـ الحكاية باختصار أننى أحلم بعمل مجلة توزّع فى جميع أنحاء الوطن العربى .. أريد إنشاء دار نشر صحفية صغيرة تكبر مع الأيام ، يكون مقرها الأساسى هنا فى (القاهرة) ..

سألتها :

ـ وتريدننى أن أنشر عندك تحقيقاتى مع السيد (س) ؟!

فأجابتنى :

ـ أكثر ، أريدك أن تصبحى رئيسة تحريرها يا أستاذة (نسرين) !

هكذا مرة واحدة ؟!

لم أنطق بها ولا بغيرها ، فقد كنت أحلق فوق سماء (القاهرة) مثلما كان (يوسف شاهين) يحلق فوق (نيويورك) فى فيلم (حدوتة مصرية) !

ـ ما رأيك ؟!

أفقت من حلم يقظتى ، وهززت كتفى قائلة ، وأنـا أحـاول ألا أبدى موافقة متسرعة :

ـ مبدئيًا لا توجد مشكلة ، لكن .. أى نـوع مـن المجلات تقصدين ؟!

هزت كتفيها بدورها ، وقالت ملوحة بكفها المخضب بالحناء والمحلى بالخواتم الثمينة :

ـ أى نوع .. لنجعلها مجلة شاملة .. سياسة وفن واقتصاد وأسرة ومجتمع وموضة ورياضة .. المهم أن تمسكى أنت رئاسة التحرير ..

إنه رأس مال حائر إذن يبحث عن أى مشروع لينهض به .. ولا مشكلة على الإطلاق فى أن أحقق أحد أحلامى وهو حلم أى صحفى فى العالم برئاسة تحرير مجلة تحمل بصمتى الخاصة ، ورؤيتى المميزة ..

أصغر رئيسة تحرير فى الشرق الأوسط ، يا للبريق الأخاذ ..

ومع هذا فيجب ألا أبدو متسرعة فى اتخاذ القرار :

ـ دعينى أفكر وسأرد عليكِ قريبًا ..

ـ لا مشكلة ، اتصلى بى هنـا فى الفنـدق عنـدما تصلين إلى قرارك ..

ـ سأفعل ..

قلتها ونهضت وأنا أمنى نفسى بأن يكون العـم (خضر) قد طلب نصف مـا تحويـه قائمـة المشـروبات فقـط ، فـى المقهى السياحى الذى ينتظرنى عليه بالأسفل ..

وفى المصعد الهابط ، كنت أفكر فى شكل أبـواب المجلـة الجديدة ، وطبيعة محتوياتها ، والعنوان المناسب لهـا ، ومـا سأطلبه من زميلاتى (مروة) و(رحاب) و(شيماء) وغيرهن اللاتى سيجدنها فرصة ذهبية للعمل بأجر مرتفع ، وتحت رئاسة واحدة من زميلاتهن ، هى أنا ..

ترى ، هل يمكن للعالم أن يكون أكثر مثالية فى أى وقـت آخر مما هو عليه الآن ؟!

* * *

٣ ـ التحقيق ..

فى صباح اليوم التالى اشتريت كل الصحف والمجلات من عند الكشك القائم على ناصية شارعنا .. لم ألق بالا لبسمة العم (خضر) فى هبوطى وصعودى ، فهو سوف يستهلك رصيد المائة جنيه التى منحتها له إضافة إلى نصفها قيمة حساب طلباته على مقهى الفندق ثم يعود وجهه المكفهر ليتصدر المشهد ، والغريب أننى أفتقد هذا الاكفهرار أكثر مما أطرب لهذه البسمة المدفوعة الأجر .. المهم أنى استهلكت أغلب النهار فى قراءة وتمحيص كل المطبوعات التى أحضرتها .. الإخراج الفنى للصفحات .. اختيار الصور وتنسيقها .. جودة المواد التحريرية .. نوع الخط المستخدم فى الموضوعات والعناوين .. وبجوارى كانت هناك ورقة بيضاء أدون فيها كل فكرة جديدة تخطر لى وكل موضوع يستهوينى أو يلفت نظرى على شكل تداعيات حرة .. هكذا يتصرف رؤساء التحرير الجادون .. لم أنس أيضًا البحث فى شبكة الإنترنت وقنوات التلفزيون الفضائية عن أفكار جديدة ، ولم أتوقف إلا عندما عضنى الجوع بنابه الأزرق ، فتذكرت أن المنزل لا توجد به لقمة واحدة منذ عودتى ، وهكذا كان القرار سريعًا .. ارتديت ملابسى واصطحبت معى

ورقتى حتى أدون كل فكرة جديدة أخرى تطرأ لى ، واكتشفت عندما غادرت البناية أن الشمس قد غربت علىّ دون أن أشعر ..

تناولت غدائى فى مطعم قريب ، ودونت بضع أفكار قبل أن أنتبه إلى أننى لم أهاتف أيًا من زميلاتى لأخبرهن بهذا الأمر الذى سيطربن له أكثر منى بالتأكيد ..

كلا .. لقد تذكرت ما هو أكثر من هذا : إنهن لا يعرفن بنبأ عودتى من الأصل حتى الآن !

من عند كابينة هاتف تعمل بالبطاقة الذكية أجريت مكالمتى الأولى :

ـ (مروة) .. كيف حالك ؟!

ـ (نسرين) .. حمدًا لله على سلامتك .. متى عدت ؟!

ـ منذ يومين .. لن تصدقى ما جرى لى هناك ، ولا ما يجرى لى هنا .. يجب أن نلتقى فى أقرب فرصة ..

ـ ماذا عن الآن ؟! إن (رحاب) و(شيماء) عندى فى المنزل ..

ـ هكذا تسير الأمور فى عالم مثالى !

ـ ماذا ؟!

ـ لا عليك ، سأكون لديك بعد عدة دقائق ..

فى عدة دقائق أقلتنى سيارتى إلى منزل (مروة) بالفعل ، لتنهال على عاصفة من المعانقات والقبلات والهتافات والبسمات والكلمات اللائمة فى حميمية لم أشعر بها من قبل ، حتى أننى كدت أبكى فى تأثر قبل أن أسمو كعادتى فوق مستوى الموقف ، وأتماسك جالسة فى دفء صديقات العمر ..

قالت (رحاب) :

ـ لن أسامحك أبدًا على سفرك دون أن تخبرينى ، لم أكن لأثقل عليك بالمتطلبات لو كان هذا ما فكرت فيه لحظتها ..

لكزتنى (مروة) بكوعها هامسة :

ـ ألم أخبرك ؟!

قلت فى دبلوماسية :

ـ لقد أتى كل شىء فجأة .. لن تتخيلن ما حدث لى هناك ..

قالت (شيماء) وهى تعود إلى تناول الكعك من الطبق الخاص بها :

ـ لا يصعب تخيل ما يجرى لكِ أنت بالذات .. لقد ظهر السيد (س) بغتة على مسرح الأحداث !

قلت فى لهجة تمثيلية مصطنعة :

ـ يبدو أننى أصبحت مكشوفة أكثر من اللازم ..

قالت (رحاب) وقد تطايرت رائحة اللوم كالكحول من لهجتها :

ـ ألن تروى لنا ما حدث ، أم ستتركينا نقرؤه فى تحقيقك القادم ؟!

هززت كتفى قائلة فى تبسط :

ـ لم أكتبه بعد حتى الآن ، لكنى سأفعل قريبًا بالتأكيد ..

سألتنى (شيماء) :

ـ وأين ستنشرينه ؟! جريدة (الأربعاء) مرة أخرى ؟!

هنا أشرق وجهى ببسمة ذات مغزى :

ـ هذا ما أتيت لإخباركن به يا فتيات ، وما لن تصدقنه وما لن يسهل توقعه أبدًا ..

قالت (شيماء) ماطة شفتيها :

ـ هو أمر لا يتعلق بالسيد (س) إذن ..

قلت :

ـ على الإطلاق ..

قالت (رحاب) فى لهفة :

ـ ارو لنا إذن ..

فرويت بالتفاصيل قصة ما جرى بالأمس مع الأميرة (سماهر) ، فارتسم الحماس على وجه (رحاب) وهى تهتف فى غير تصديق :

ـ مستحيل .. مجلة كاملة ترأسين تحريرها يا (نسرين) ؟!

هززت رأسى بالإيجاب ، فعلقت (شيماء) وهى تعب من زجاجة الكولا لتضيف المزيد من السعرات الحرارية إلى دهونها المترهلة :

ـ معنى هذا أن أمكنتنا فيها محجوزة طبعًا ..

قلت ضاحكة :

ـ طبعًا .. سنحرر المجلة من الغلاف إلى الغلاف معًا شىءتن أم أبيتن ..

والتفتُ إلى (مروة) ، لأرى آخر ما أتوقعه : سحنتها المتجهمة !

ـ يبدو أنك لم تحبى الفكرة يا (مروة) ..

قلتها فى تحفز ، فتفكك جليد وجهها بعض الشىء إذ قالت :

ـ الأمر كله فى حاجة إلى تقييم ..

ضيقت عينى لأسألها :

ـ كيف ؟!

فأجابت :

ـ هناك أكثر من سؤال : لماذا أنت بالذات ؟! لماذا هذا الوقت بالذات ؟! هل هذه الأميرة جادة فى عرضها أم إنها تضيع وقتها فحسب ؟!

لا أعلم لماذا بدت (مروة) فى تلك اللحظة مثل عجائز الفرح الذين ينوحون وسط دق الطبول وتصفيق المدعوين ، وقد ضايقنى موقفها إلى أقصى حد كما بدا فى نبرتى إذ أقول :

ـ أنا بالذات لأنها تهوى تحقيقاتى كما أخبرتنى ، وبقية الأسئلة لا إجابة عندى لها فى الوقت الحالى ، لكن الزمن وحده سيتولى الإجابة عليها ..

عادت (مروة) تنوح وسط الدق والتصفيق :

ـ لنتصور أن العرض جاد وصادق وسيتحول إلى مشروع حقيقى على أرض الواقع ، هل تقبلين العمل تحت سطوة من يتحكم فيك بنقوده ؟! لمن ستكون الكلمة العليا إذا حدث خلاف فى الرأى ، لك كرئيس تحرير أم لمن يدفع لك وللمطبعة ولشركة التوزيع ؟! أكثر من هذا .. أليست هناك أى خفايا وراء المشروع مثل غسيل أموال أو توجيهات سياسية أو ... ؟!

قاطعتها فى لهجة ساخرة :

ـ أو ربما مؤامرة صهيونية .. لعل (آرييل شارون) نفسه هو من دفعها للقائى بالأمس ، يجب أن نتحسب لكل الاحتمالات السوداوية كهذه ، أليس كذلك ؟!

وجمت (رحاب) وتوقفت (شيماء) عن إضافة السعرات الحرارية إلى دهونها المترهلة ، أما (مروة) فقد بهتت للحظة قبل أن تقول :

ـ أردت فقط أن ألفت انتباهك إلى نقاط ربما لم تنتبهى إليها فى غمرة حماسك وفرحك بالمشروع الجديد ..

نهضت واقفة وأنا أهتف بها فى حنق احمرت له وجنتاى :

ـ توقعت منك حماسًا وفرحًا مضاعفًا ، لا صدمة مثل التى أراها مرتسمة فى جلاء سافر على وجهك .. حقًا ، إن الصديقات يظهرن فى هذه المواقف يا عزيزتى ..

عقدت حاجبيها إذ تتساءل :

ـ صدمة ؟! أى صدمة يا (نسرين) ؟!

ـ الأمر أوضح من أن أفسره يا عزيزتى (مروة) .. إنه يفسر نفسه بنفسه فى سؤالك الأول : لماذا أنا بالذات ؟! لكأنك تريدين أن تسأليني : لماذا أنت يا (نسرين) وليس أنا ؟!

ـ (نسرين) ، نحن صديقتان و من المستحيل أن أفكر بهذه الطريقة ..

ـ صديقتان نعم ، لكن مع حفظ المكانة وحق التميز .. أنت الأولى أثناء الدراسة والمعيدة المتفوقة والصحفية الصاعدة فى الصحف الخليجية والمصرية ، وأنا لا أملك إلا السيد (س) الذى يجود على بمغامرة ألقيها للقارئ كلما تيسر ظهوره .. لكن أن أكون رئيسة تحرير مجلة وأطلب منك أن تعملى معى على النهوض بها ، هنا يجب أن أقف عند حدى ، وأن أتذكر مع من أتكلم ..

حاولت (شيماء) أن تهدأ من روعى ، فمدت يدها إلى ذراعى مغمغمة :

ـ اهدئى يا (نسرين) ، الأمر لا يستحق كل هذا الغضب ..

جذبت ذراعى من يدها فى عنف ، وأنا أهتف فى نبرة أقرب للصراخ :

ـ اتركينى وشأنى ، من ترد منكن أن تعمل معى فيها ونعمت ، ومن تؤثر الانضمام إلى جانب عجائز الفرح ، فقد أراحت واستراحت .. بإذنكن ..

وانطلقت كرصاصة نحو باب الغرفة ، حتى احتوتنى سيارتى التى قدتها فى شوارع الليل بسرعة جنونية ، فكدت أصدم عدة سيارات وعربة مترو وعامود إنارة وأحد المارة وشاهدت أكثر من عسكرى مرور يدون رقمى فى دفتره الصغير ..

ليذهب كل شىء إلى الجحيم ، إن العالم ليس بهذه المثالية التى تخيلتها ..

دائمًا عندما يكتمل الشىء يظهر ما ينغص عليك فرحتك ، ويوغر صدرك على العالم وكل ما فيه ، والمأساة الكبرى أن تأتيك الطعنة من ظهرك ، من حيث لم تتوقع ..

لكل شىء إذا ما تم نقصانُ فلا يغر بطيب العيش إنسان

لكأن الشاعر كان يتحدث عنى أنا بالذات ، أو لعله حال البشر فى كل زمان ومكان ..

عند بوابة البناية كان العم (خضر) هناك ، وقد استقبلنى بوجه أسود رغم أن رصيدى لم يكن قد نفد لديه بهذه السرعة ، الأمر الذى جعلنى أسأله فى استغراب :

ـ ماذا حدث يا عم (خضر) ؟!

نظر نحوى بعينين خاويتين ، قبل أن يرفع ذراعه ويقول فى لهجة غامقة مشيرًا إلى السلم :

ـ إنهم بالأعلى !

نبض قلبى فى عنف :

ـ من ؟!

مد ذراعه على امتدادها نحو خارج البناية ، مجيبًا :

ـ الشرطة !

نظرت إلى حيث يشير ، ورأيت عربة شرطة زرقاء مشابهة للتى خصصتها المباحث الجنائية لـ (هشام) كى يستخدمها فى تنقلاته ، نصف نقل بشعار الشرطة على

جانبى بابيها ، وقد غطيت العربة الخلفية بالجلد كى تتحول إلى (بوكس) ..

سائقها جندى أمن بشارب رفيع وملابس سوداء ، وقد كان يتحدث فى جهاز لاسلكى .. لم أر أحدًا سواه فعدت أسأل العم (خضر) دون أن أخفى هلعى :

ـ بالأعلى أين ؟!

دقت خطواتهم على درجات السلم من خلفى ، فتراجعت إلى الخلف خطوة لا إرادية ، وأنا أرى عددًا من الجنود المتشحين بالسواد يهرولون ناحيتى ومن خلفهم هتاف ضابط جهورى :

ـ بسرعة .. ألقوا القبض عليها ..

وقد أجابنى العم (خضر) بلهجة هى السواد نفسه :

ـ فى شقتك يا أستاذة (نسرين) ، كانوا يفتشونها ..

فى هذه اللحظة أمسك جنديان بذراعى فى قوة وقسوة ، فتجمدت فى وقفتى وقاومت حتى لا أسقط على الأرض ، فى حين ظهر أمامى كمارد عملاق شرطى يرتدى زيًا مدنيًا : قميصًا أبيض وبنطلونًا أزرق وسترة من الجلد الطبيعى الأسود ، مسدسه فى غمده ، بسمته ثعلبية ، شعر رأسه

منحسر إلى الوراء ، وقد كان يفرك كفيه فى نشوة صياد أوقع بفريسته ..

ـ مرحبًا يا آنسة (نسرين) .. لقد جئتِ فى الوقت المناسب تمامًا ..

سألته وأنا أقاوم ألم ذراعى والنواقيس الزاعقة فى رأسى :

ـ من أنت ؟!

أجابنى مقدمًا نفسه فى تيه :

ـ مقدم (فادى عزيز) ، مباحث جنائية !

زميل (هشام) إذن ، هكذا فكرت .. لكن النظرات فى عينى (فادى) هذا تقول أن الزمالة ليست فى حسبانه على الإطلاق ..

هتفت فيه :

ـ لماذا تفتشون شقتى ؟! يجب أن يكون معك إذن نيابة ..

ضحك حتى ظهرت ضروسه المحشوة بالزنبق ، وأخرج ورقة من جيب سترته الجلدية قائلا :

ـ إننى شرطى يعرف ما يفعله يا آنستى العزيزة .. إذن النيابة صادر بتاريخ البارحة لو كنت تعرفين القراءة ..

أشهره فى وجهى ، ولأنى أعرف القراءة فقد لاحظت أن المستند سليم رغم الإضاءة الشحيحة عند مدخل البناية ..

- هذا لا يجيب عن سؤالى ، لماذا ؟!

طوى الورقة وأعادها إلى جيب سترته قائلا فى لهجة صارمة ، كأنه يتعامل مع مجرمة عتيدة :

- ستعلمين كل شىء لدينا فى التحقيق .. هيا ، احملاها فى عربة (البوكس) إلى هناك وسأتبعكم بسيارتى !

كاد الجنديان أن يمتثلا لأمره بسرعة ، لكنى استوقفتهما لأرمى حجرًا وأرى مدى إصابته :

- لحظة .. إننى خطيبة المقدم (هشام) من المباحث الجنائية أيضًا ..

قال (فادى) فى استخفاف :

- أعلم ..

- اسمحوا لى بالتحدث إليه هاتفيًا إذن على الأقل !

تجاهلنى (فادى) ، ووجه حديثه الصارم إلى الجنديين الممسكين بى موقعًا فى قلبيهما الذعر :

- تأخذانها من يدها إلى غرفة التحقيق رأسًا ، ولا تسمحا لها بالتحدث إلى أحد حتى أحضر إليها بنفسى .. مفهوم ؟!

- مفهوم ..

الرسالة لهما ولى معًا ، ورغم غموض مغزاها بالنسبة لى على الأقل ، إلا أننى أيقنت أننى فى ورطة كبرى .. وإذ انغلقت القيود المعدنية على معصمى ، وإذ دفعتنى الأيدى لركوب عربة (البوكس) أمام عينى العم (خضر) الخاويتين ، وعيون سكان الشارع الشاخصة من الشرفات والنوافذ بعد تشغيل نفير الشرطة المتقطع ، كنت أفكر لحظتها فى أن العالم الذى بدا مثاليًا للحظة أمام ناظرى ، يثبت لى الآن بالدليل القاطع الذى لا يدع مجالا للشك أننى كنت حمقاء بشدة ..

وبمنتهى الجدارة !

* * *

مضى وقت طويل وأنا جالسة فى غرفة رطبة عارية من الأثاث ، باستثناء مكتب معدنى قديم خلفه مقعد تمزق كساؤه ، ومقعد خشبى آخر غير مريح أجلس أنا فوقه ..

وأنتظر ..

هو مبنى المباحث الجنائية الذى دخلته من قبل مرارًا كزائرة لخطيبى أحيانًا ، وكصحفية تبحث عن معلومة أحيانًا أخرى .. هذه هى المرة الأولى التى أدخله فيها كمتهمة بقيود

حول معصمى ، وهى المرة الأولى التى أهبط فيها إلى قبو المبنى ، للدقة هى المرة الأولى التى أعرف فيها أن للمبنى قبوًا ، ويبدو أنهم يدخرونه لمتهمين من نوع خاص ، مثلى لا يعرفون ما هى التهمة أو التهم الموجهة إليهم رغم مرور ساعات طويلة على الاحتجاز ..

تذكرت كتاب (مذكراتى فى سجن النساء) للدكتورة (نوال السعداوى) الذى تروى فيه بالتفصيل قصة احتجازها واعتقالها السياسى أثناء حملة سبتمبر ١٩٨١ ، ووجدت نفسى فى موقف ربما يكون مشابهًا .. صحيح أنى لا أتعاطى السياسة وربما لم تتشكل رؤيتى السياسية للحياة من حولى بعد ، لكنى محتجزة دون سبب واضح ، وأنتظر معجزة من السماء تنتشلنى من مصير غامض ، ولو حملونى من هنا دون مساءلة أو محاكمة إلى سجن النساء فلن يشعر بى أحد ، كل هذه نقاط تشابه بينى وبينها فى تلك السنة البعيدة ..

أبى مسافر إلى جهة غامضة ، خطيبى الشرطى لا أعرف عنه ولا يعرف عن حالى شيئًا ، صديقاتى لن يفتقدننى بهذه السرعة ..

لا أسهل فى هذه الظروف من تخيل نفسى فى ثوب أبيض بشال يغطى رأسى داخل عنبر من الأسرة الحديدية

ذات الدورين ، كما أشاهد فى الأفلام السينمائية ، وتداعت إلى رأسى على الفور صورتها ..

(سهير) !

سأشبهها فى ملابس السجن حتمًا .. ملامحى ستتآكل كمرضى الجذام داخل السجن ، ولن يتبقى منى سوى النظرات النارية ، أرسلها للعالم من حولى دون أن يشعر بها أحد ..

مضى الوقت طويلا ، حتى انفتح الباب الموصد فى النهاية ، ليدخل المقدم (فادى عزيز) حاملا ملفًا ضخمًا ، وضعه على سطح المكتب ثم جلس وراءه ، فوق المقعد الذى تمزق كساؤه ..

عذبنى الصمت ، أما (فادى) فقد تلاعب بأعصابى ببرود شرطى محترف ، وهو ينظر فى المجهول ويطرق بأصابعه على سطح المكتب تارة ، ثم يعبث بهما فى الهواء تارة أخرى ..

كان هذا أكثر مما أحتمل :

ـ الآن ماذا ؟!

نظر (فادى) نحوى قائلا فى سخرية :

ـ هل قررتِ التحدث أخيرًا ؟!

قلت محاولة الحفاظ على هدوئى :

ـ أنتظر تفسيرًا لما يحدث لى منذ ساعات يا سيادة المقدم ..

يبدو أن هدوئى قد أحنقه ، فضرب سطح المكتب فى قوة قبل أن يصيح فى غضب أرعبنى :

ـ اخرسى .. لسنا مضطرين لشرح أى شىء لك أو لغيرك .. هل هذا مفهوم ؟!

كدت أبكى قهرًا .. لم يخاطبنى أى إنسان بهذه اللهجة منذ ولدت ، واليوم تحديدًا يظهر لى هذا العصبى من اللامكان لينغص على شعورى بمثالية الحياة ، كأن (مروة) لم تكن لتكفينى !

قلت محاولة ألا أستثيره أكثر :

ـ على الأقل أريد أن أعرف ، ماذا تريدون منى ؟!

أشار نحوى بسبابته مواصلا هجومه الكاسح :

ـ لا تتظاهرى بالبراءة ، أمقت هذه اللعبة يا فتاة .. هل تفهمين ؟!

جاهدت لكى أعثر على ما أقوله دون أن أغضبه :

ـ قلت لى أن تحقيقًا سيجرى معى ..

لهث فى قوة ، وقال فاتحًا الملف أمامه على المكتب :

ـ أجل ، سوف ألقى عليك بعض الأسئلة قبل عرضك على النيابة غدًا صباحًا ..

سألته بتلقائية :

ـ هل سأبقى هنا حتى الصباح ؟!

هز كتفيه وأجابنى فى تلقائية مماثلة دون أن يهدأ لهاثه إلا قليلا :

ـ ليس فى هذه الحجرة .. فى الزنزانة ربما !

اقشعر بدنى من الفكرة ، وارتعشت أطرافى إذ أتصور نفسى ألملم أطراف ثيابى كى أنام على الأسفلت وسط محترفات الإجرام والمسجلات خطر .. نفضت الفكرة عن رأسى عندما سألنى (فادى) رافعًا كتابًا أمام عينى أخرجه من الملف :

ـ هل هذا الكتاب يخصك ؟!

عقدتُ حاجبى متصورة سخافة ما قد يقود إليه تحقيق كهذا :

ـ أجل ، هل أخذتموه من مكتبتى ؟!

صاح بى وهو يدق على سطح مكتبه مجددًا :

ـ أنا الذى يوجه الأسئلة هاهنا .. كتاب (الفريضة الغائبة) هذا يخصك ؟!

ـ قلت أجل ، لكن .. هل لهذا علاقة باحتجازي ؟!

تجاهل سؤالى ، وتساءل وهو يقلب فى صفحات الكتاب :

ـ هل أنت مهتمة بالأصولية الإسلامية التى تخطط لقلب نظام الحكم ؟!

ـ اهتماماتى متعددة .. وهذا الكتاب ليس منشورًا سريًا ، لقد ابتعته من إحدى المكتبات التى تعرضه علنًا أمام الجماهير ..

ـ وما رأيك فى الأفكار الواردة فيه ؟!

ـ أرفض الإجابة عن هذا السؤال ..

نظر (فادى) إلى مستهجنًا ، فرفعت أمام عينيه القيود حول معصمى ، مردفة بتفسير :

ـ لا يمكن أن أناقش أية أفكار وهذه القيود تكبلنى ..

ـ ليكن ..

قالها (فادى) ونحى الكتاب جانبًا ، ثم إنه أخرج ورقة من الملف ونظر فيها متسائلا ، ومضيقًا عينيه كمحققى الدراما الذين أثروا على أدائه بالتأكيد :

ـ أين كنت البارحة من الساعة السابعة إلى الثامنة مساء ؟!

رفعت حاجبى فى غير تصديق :

ـ هل كنت موضوعة تحت المراقبة ؟!

صاح بلهجة جمدت الدماء فى عروقى :

ـ كفى عن توجيه الأسئلة ..

قلت على الفور :

ـ ذهبت إلى فندق من ذوى الخمس نجوم لأقابل أميرة عربية عرضت على مشروع عمل مجلة ، وقد وعدتها بالتفكير والرد عليها سريعًا ..

سألنى عن اسم الأميرة ورقم الجناح الذى تقيم فيه ، أخبرته بما أعرف فدوّن ما أقول على الورقة باهتمام ، وعاد يضعها فى الملف ، دون أن أفهم ما يرمى إليه كل هذا !

ـ الآن أخبرينى ، ما هذا ؟!

سألنى (فادى) وهو يرفع كيسًا بلاستيكيًا من أكياس إحراز الأدلة الجنائية ، واتسعت عيناى فى رعب إذ لمحت ما فيه ..

إنه الرماد المتخلف عن إحراقى لجواز السفر ذى الهوية البديلة التى عدت بها من (واشنطن) عبر (أمستردام) منذ بضعة أيام .. لابد أنهم عثروا عليه إثر تفتيش الشقة .. تبًا لنسياني !

كيف أخبره بأمر نبه علىّ رجل الأمن (كريم) ألف مرة بألا أتفوه به لمخلوق ؟!

أى ورطة أكابدها الآن ؟!

ماذا عساى أن أفعل ؟!

ـ دعينى أختصر عليك الطريق .. تحليل المعمل الجنائى يقول إنه بقايا جواز سفر محترق .. السؤال هو : لماذا يفكر أى عاقل فى إحراق جواز سفره ، إلا إذا كان به ما يخشى أن يراه أحد ؟! أن يكون جواز السفر هذا مزيفًا مثلا ؟!

أشعر بالدائرة تنطبق على عنقى ، وبالكارثة تدنو من أصابعى دون حتى أن أدرك أبعادها كاملة ..

ـ واضح أنك عاجزة حتى عن الإنكار ..

مذهولة بعينين متسعتين ولسان مشلول ، هذا أنا فى تلك اللحظة ..

ـ أريد الاتصال بمحام .. القانون يكفل لى هذا الحق ..

قال معيدًا كيس الإحراز إلى الملف :

ـ الآن فقط تتذكرين القانون ، عندما تكونين بحاجة إليه .. أما عندما تخرقينه ...

قاطعته بلهجتى الصماء :

ـ لن أتحدث إلا فى وجود محام ..

نهض (فادى) مستندًا على ذراعيه وراء المكتب :

ـ بل ستتحدثين ..

قالها فى برود ، فرددت بنفس البرود :

ـ لن أتحدث إلا فى وجود محام ..

دار (فادى) حول المكتب :

ـ ستتحدثين ، هل تسمعيننى ؟!

نظرت إليه وقد أصبح أمامى ، ودبت فى أوصالى موجة من الشجاعة المباغتة جعلتنى أقول فى مواجهته :

ـ اذهب إلى الجحيم !

أشعلت عبارتى غضبه ، ولم أشعر إلا بصفعته تنهال على وجهى ، وبجسدى يقط على الأرض مع المقعد الخشبى المتهالك الذى تحطمت ساقه ، وهذه المرة كنت أبكى قهرًا بالفعل ، عندما رفعت عينى إليه قائلة فى لهاث :

ـ لسوف تدفع ثمن فعلتك هذه غاليًا ..

كان يلهث هو الآخر ، وقد أشعل تهديدى غضبه أكثر ، فاقترب منى ، وجذبنى من شعرى مغمغمًا بلهجة رهيبة ، لم تخفنى هذه المرة :

ـ اسمعينى جيدًا .. أنتِ متهمة فى قضية أمن دولة عليا .. وبمقتضى قانون الطوارئ لن ينجيك من قبضتى أحد ، حتى الشيطان نفسه ..

ترك شعرى بغتة ليسقط وجهى على الأرض ، فصرخت فى ألم ، بينما نهض هو مواصلا :

ـ القرائن التى عثرنا عليها ، بالإضافة للدليل الدامغ الذى نملكه ، يجعل من توجيه تهمة قتل أو على الأقل المشاركة فى قتل (هلال رضا) لك أمرًا مقضيًا ..

وتألقت عيناه إذ يفسر :

ـ الدليل الدامغ الذى أعنيه ، هو بصمة إبهامك الأيمن فى منزل القتيل ، الصحفى الشريف (هلال رضا) ..

لو كان هذا مشهدًا فى فيلم ردىء ، لضحك (فادى) ضحكة الشر الكارتونية مع دخول الكاميرا حتى اللهاة لتخرج إلى المشهد الآخر ..

لكنه ليس فيلمًا وليس مشهدًا رديئًا ، وما قاله (فادى) جعلنى أتذكر ، وإن لم يجعلنى أفهم ..

لقد زاد الأمر تعقيدًا .. وغموضًا .. وخطورة !

* * *

٤ ـ بضمان محل إقامتها !

(.. المعلومة الغريبة التى ما زالت تدق مسامير ها فى رأسى هو ما أخبرنى عنه (هشام) بشأن البصمة التى وجدت أسفل ثلاجة منزل الأستاذ (هلال رضا) فى مغامرتى السابقة ، فقد ذكر شيئًا عن أن هذه البصمة تتطابق مع إحدى بصماتى(*) !

★ ★ ★

(هشام) كان يعرف إذن ، لكنه لم يكن هنا ليحذرنى قبل وقوع الفأس فى الرأس .. ربما لم يكن هو نفسه يعلم بأن الأمور سوف تتطور إلى هذا الحد ، أما أنا فقد نسيت أو لعلى تناسيت الحكاية فى غمار معاهدة السلام التى توهمت أننى فى سبيلى لإبرامها مع نفسى والحياة ..

كيف وصلت بصمتى إلى هناك ؟!

هذا سؤال قد تجيب عنه نظرية الانفصام ، فالسيد (س) هو الذى دخل الشقة ليخفى مظروف المستندات أسفل الثلاجة كما سيتذكر من قرأ مغامرة (ممنوع الاقتراب) ، أى أنها قد تكون بصمة السيد (س) نفسه ..

(*) العدد السابق (حسناء بروكلين) ص ١٤٨

وما دام السيد (س) هو أنا ، فبصمته هى بصمتى .. منتهى البساطة !

لا تبدو نظريتى بعيدة إلى هذا الحد إذن ..

لكن .. من ينقذنى من براثن جلاد المباحث الجنائية السادى هذا أولا ، لكى أستطيع التفكير فى هدوء بعدها ؟!

من ، وأنا هنا وحدى تمامًا ، خائفة تمامًا ، وعاجزة تمامًا ؟!

★ ★ ★

كنت فوق الأرض أجاهد للنهوض دون جدوى .. دموعى سيل ، قواى خائرة ، و(فادى) من وراء ظهرى يفرك كفيه ، ويستمتع بتأوهاتى كأنها سيمفونية لـ (بتهوفن) ، ويتلذذ بتهديدى إلى أقصى حد ممكن :

ـ نلجأ فى المعتاد إلى أساليب أكثر إقناعًا مع النساء بالذات من أجل حملهن على التوقيع فوق اعترافات لم تكتب بعد .. لكن إحقاقًا لواجب الزمالة المقدس مع (هشام) سوف أكتفى معك بهذا القدر ، وسأحظى بتوقيعك الجميل على اعتراف مكتوب يمكنك مراجعته بنفسك .. فما رأيك ؟!

قهر وإذلال ..

لم أقو على التفوه بحرف ، وللحظة فكرت أن سبيل الفكاك من قبضته ربما يكون فى التوقيع بالفعل ، وبعدها يمكننى أن أنكر كل شىء أمام المحكمة ، وأتذرع بأنى أجبرت على هذا الفعل تحت تهديد مباشر بالعنف إلى حد الاغتصاب !

ـ لماذا لا أسمع منك ردًا ؟!

حاولت السيطرة على دموعى دون جدوى ، وفى اللحظة التى كدت أفتح فمى لكى أتفوه بكلمة ، ارتفعت طرقات على باب الحجرة ، فاكفهر وجه (فادى) الذى صرخ فى جبروت :

ـ من ؟!

دلف جندى أمن بالس ، ركله (فادى) بقوة فى مؤخرته وهو يرغى ويزبد :

ـ ألم أطلب عدم دخول أحد إلى هنا مهما كانت الأسباب يابن الـ ... ؟!

من الطبيعى أن يستخدم شخص مثل (فادى) سبابًا نابيًا كهذا الذى أترك تصوره لخيالك ، وقد تأوه الجندى بقوة قبل أن يقول فى استعطاف :

ـ آسف يا (فادى) باشا .. لكن (محفوظ) باشا هو الذى أرسلنى إليك برسالة شفهية سريعة ..

ـ تكلم على الفور أيها الـ ...

ـ يقول إن هناك محاميًا أتى ليحضر التحقيق مع المتهمة الجديدة ، وهو ينتظر فى غرفته بالأعلى ..

عقد (فادى) حاجبيه ، وصاح :

ـ محام ؟! بهذه السرعة ؟! ومن الذى أرسله ؟!

هز الجندى كتفيه فى جهل فما كان من (فادى) إلا أن ركله مرة أخرى فى غضب ، فأسرع يهرول نحو باب الخروج كأنه يفر من قسورة ..

ـ لحسن الحظ أن جاءتك نجدة من السماء ، لكن كل شىء لا يزال تحت السيطرة .. انتظرينى ، سوف أعود بسرعة !

وتركنى (فادى) لدقائق ، قبل أن يعود ليجدنى قد تحاملت على نفسى واقفة فى صلابة وقد جفت دموعى ، أما شعرى الهائش فلم تكن يداى حرتين لأهذبه ، دعك من علامات أصابعه الحمراء فوق وجهى ..

اقترب منى حاملا مفتاحًا صغيرًا ، وكان بيدى الضيق وقلة الحيلة ؛ إذ يقول :

- لأجل مصلحتك ، حاولى ألا تتفوهى بأى كلمة لا لزوم لها .. تعرفين ما أعنى بالطبع ..

ثم دسّ المفتاح فى ثقب القيود المعدنية لتتحرر يداى أخيرًا ، وبعد أن سويت شعرى وهندامى قادنى (فادى) من معصمى إلى الخارج ، وصعد بى من القبو إلى غرفة للتحقيق أكثر آدمية ، ألقانى بها لأجلس مرتعدة أحاول التماسك ؛ حتى انفتح الباب أخيرًا ، لتبدو على حافته هيئة الأستاذ (سبعاوى) ، التى بدت ملامحه فى عينى لحظتها تضارع جمال (فينوس) نفسها ..

(سبعاوى أبوالحمد السبعاوى) محامى السيد (س) القصير الأصلع بأنفه المدبب ، وعينيه الحادتين ، وبذلته الكالحة ، وربطة عنقه المزركشة وحقيبة الجلد الأسود الممزقة ، ورائحة التبغ الخام المشعة من شفتيه الرفيعتين إلى حد التلاشى ، يا للفتنة المستحيلة !

قابلنى بنفس بسمته المستفزة حتى مع تأمله فى مظهرى المزرى ، وقد أشار للجندى خلفه بإغلاق الباب ، فى حين تعلقت أنا بطرف سترة بذلته كما تفعل طفلة تركها والدها للمرة الأولى فى دار الحضانة :

- أرجوك يا أستاذ (سبعاوى) ، حاول جهدك أن تخرجنى من هذا الجحيم .. بأى طريقة ..

قال بصوته الرفيع اللامبالى :

- إننا نتطور بخطى ملموسة .. هذه المرة لم يخيب مرآى ظنك كما أرى ..

قلت وأنا أجاهد لترتيب كلماتى :

- إنهم يريدوننى الاعتراف بجريمة لم أرتكبها ، ويمارسون على ضغوطًا نفسية وبدنية عنيفة لا قبل لى بها ..

جلس أمامى فى رباطة جأش ، قائلا :

- أعلم ، موكلى أرسلنى إليك لكى أخرجك من هنا بطريقة قانونية سليمة مائة بالمائة ..

سألته فى لهفة :

- ماذا ستفعل إذن ؟!

أخرج سيجاره الضخم من جيب سترته الداخلى .. قضم طرفه وبصقه بقوة .. أشعل الطرف بقداحة صينية رخيصة .. سحب نفسًا ونفثه فى الهواء ، ثم :

- كل ما أستطيعه حاليًا هو أن أضمن لك قضاء الليلة فى منزلك ..

- هذا سيجعلنى ممتنة لك حقًا .. متى سنغادر ؟!

ابتسم قائلا :

ـ بعد عرضك على النيابة ..

اندهشتُ :

ـ النيابة ؟! الليلة ؟!

هز كتفيه :

ـ إنهم متعجلون للغاية كما يبدو .. لقد أرادوا أن يمنعونى من مقابلتك بإنكار وجودك هنا من الأصل ، لكنى هددت باللجوء للنائب العام شخصيًا من أجل تسهيل لقائى بك .. ولم يكن محض تهديدى ليفزعهم ، فقد تحدث إليهم النائب العام هاتفيًا بالفعل وهو ما جعلهم يسمحون لى بمقابلتك الآن ، ودفعهم للإسراع بالإجراءات واستدعاء وكيل النيابة من منزله ليحقق معك ..

هتفت مذهولة :

ـ النائب العام شخصيًا تدخل من أجلى أنا ؟!

غمزنى (سبعاوى) من بين دخان سيجاره :

ـ إن موكلى ليس بالشخصية التى يستهان بها لدى علية القوم !

السيد (س) ؟!

انفتح الباب علينا بغتة ، ودوى هتاف المقدم (فادى) :

ـ هيا ، ستنقلكم عربة الشرطة إلى مبنى النيابة العامة ..

نهض (سبعاوى) ونهضت أنا وراءه ، كأنى أحتمى بقامته القصيرة من نظرات (فادى) الحارقة ، التى مازالت تنطوى على تهديد ووعيد صريحين ..

* * *

وكيل النيابة شاب بدين له شارب رفيع ، يرتدى قميصًا وربطة عنق أنيقة ، ويجلس خلف مكتبه فى استكانة .. أتأمله بينما أدخل إلى غرفة مكتبه خلف (سبعاوى) الذى يجلس فى مواجهتى ، حتى يلفنا نحن الثلاثة ـ دعك من الكاتب الصامت دائمًا بجوار وكيل النيابة ـ صمت طويل ..

تحدث وكيل النيابة أولا :

ـ الواقع أن المحضر الذى أمامى مفزع للغاية .. إن موقفك حرج يا آنسة (نسرين) إلى حد لا يصدق !

قلت متجاهلة عبارتيه معًا :

ـ أحب فقط فى البداية أن أسجل الإهانات اللفظية والجسدية التى تلقيتها فى مبنى المباحث الجنائية ، فهى تتنافى مـع أبسط حقوق الإنسان فى أى مكان فى العالم !

افتر ثغـر وكيـل النيابـة عـن بسـمة جانبيـة سـرعان ما تلاشت ، وهو يقول فى ثبات :

ـ هناك تجاوزات كثيرة فى الجهاز الأمنى لدينا ، نعرف هذا لكننا نحاول السيطرة عليه بأقصى ما نستطيع .. ضباط الشرطة يضطرون أحيانـا إلـى اللجـوء لهـذه الأسـاليب فـى مواجهـة عتاة الإجرام ، ومحترفى القفز عبر الثغرات القانونية .. لست أدافع عنهم لكنـى أدعـوك إلـى أن تعذريهـم ، أليـس خطيبـك ضابطًا فى نفس الموقع ؟! اسـأليه إن كـان هـو نفسـه يلجـأ إلى هذه التجاوزات أحيانًا أم لا ؟!

(هشام) ؟!

أعجز عن تصور ملامحـه الطفوليـة فـى هيئـة متوحشـة كـالتى بـدا عليهـا (فـادى) اليـوم ، أو ربمـا أكـون الحمقـاء المثالية الوحيدة فى هذه الغابة الكبيرة التى نعيش فيها ..

المهم أن السيد وكيل النيابة يريد القفز على شكواى فـى صراحة مقيتة ، كأن ما جرى لى فى المباحث الجنائيـة أمـر عادى يمكن أن يمر بسهولة ..

لماذا أشتم رائحة تواطؤ بينه وبين المقدم (فادى) ؟!

قطعت عبارته تواصل أفكارى :

ـ أريد فقط قبل أن نفتح المحضر أن أنبهك مرة أخرى إلى خطورة موقفك القانونى يا آنسة (نسرين) ..

قلت :

ـ كل ما سمعته من المقدم (فادى) محض هراء .. إننـى لـم أقتـل (هـلال رضـا) ، بـل كنـت محتجـزة معـه فـى قبـو واحد ، وكدت ألقـى حتفـى معـه فـى الصحـراء لـولا أن استطعت الركض إلى أقرب نقطة عسكرية ..

قال وكيل النيابة :

ـ تعلمين أنه كان من أشد المنـاهضين لحركـة الأصوليـة التى تقوم على هدر الدماء وفرض فكر التكفير ، والدلائل التى لدينا تشير إلى أنك ربما كنت أداة فى أيديهم من أجل القضاء على واحد من ألد أعدائهم !

سألته فى سخرية :

ـ لمجرد وجود كتاب (الفريضة الغائبة) فى مكتبتي ؟!

أجابنى :

ـ بل لعدة قرائن تعضد من شكوكنا .. سفرك إلى (الولايات المتحدة) قريبًا .. جواز السفر المحترق .. زيارتك لفندق بالأمس يقيم فيه نزيل أفغانى يُعدّ من أكثر من يثيرون حولهم عواصف أمنية وعلامات استفهام حول علاقاته بالجماعات الإرهابية المسلحة داخل (مصر) وخارجها ..

هتفت فى حدة :

ـ لقد أخبرتُ المقدم (فادى) بالسبب الحقيقى لذهابى إلى هناك !

هز رأسه فى تفهم :

ـ أجل ، لكن للأسف .. ما تفوهتِ به سيؤخذ ضدك على طول الخط ..

ـ كيف ؟!

ـ التحريات أثبتت خلال الساعات الماضية أن الفندق المذكور لم تهبط فيه أميرة عربية تحمل اسم (سماهر) من يوم إنشائه حتى اليوم طبقًا للسجلات ..

ـ ماذا ؟! ربما لم تكن تستخدم اسمها هذا !

ـ الجناح الذى أعطيتنا رقمه كان محجوزًا لعائلة مصرية طوال الشهر الماضى ولمدة شهر قادم ..

ـ لقد كان معى شاهد ، بواب البناية التى أسكن فيها ..

ـ هل شاهدكما معًا ؟!

ـ كلا ، انتظرنى فى بهو الفندق ريثما أنتهى ..

ـ شاهد لم ير شيئًا إذن ، من الممكن أن تكونى قد زرت أى غرفة أخرى وهو جالس ينتظرك ، أليس كذلك ؟!

نظرت إلى (سبعاوى) أستنجد به ، ورأيته يبتسم فى استفزاز !

ـ إنها مؤامرة تهدف إلى النيل منى ، لكن ..

لماذا ؟!

ـ بالإضافة لكل ما سبق ، فقد قمنا بالكشف على حسابك البنكى لنكتشف وجود مبلغ ضخم تم إيداعه فيه الأسبوع الماضى ..

هتفت مصعوقة :

ـ مبلغ ضخم ؟!

ـ مليون دولار !

رباه ، إنهم يسلخون جلدى حية ..

ـ وتأتى البصمة التى طابقناها بسجل الفيش والتشبيه الخاص بك ، لنتأكد من تطابقها مع بصمة إبهامك الأيمن طبقًا لتقرير المعمل الجنائى وبشهادة وتوقيع أكثر من خبير بصمات متخصص ؛ لتضع اللمسة الأخيرة على علاقتك بالقتيل .. أضيفى إلى هذا أنه لقى حتفه وأنت لا ، مما يضعك داخل المزيد والمزيد من دوائر الشك ..

قلت مبهوتة :

ـ لكنى لم أقتله ، والبصمة التى فى شقته ليست بصمتى !

فتح وكيل النيابة ملفًا أمامه ، وأخرج منه صورة لبصمة كبيرة قائلا :

ـ هذه صورة مكبرة للبصمة التى تم العثور على أثرها فى شقة (هلال رضا) ..

ثم أخرج صورة أخرى لبصمة كبيرة مشابهة إلى حد التطابق :

ـ وهذه صورة أخرى مكبرة للبصمة المأخوذة من سجل الفيش والتشبيه الخاص بك ، فما رأيك ؟!

رباه ، التطابق أوضح من أن يحتاج إلى خبير !

سيبدو عصيًا شرح نظرية الانفصام فى ظل هذه الظروف الشائكة ، القول المأثور (السكوت من ذهب) مصنوع ليتذكره المرء فى مثل هذه المواقف بالذات ..

تنهّد وكيل النيابة قائلا :

ـ والآن ، هل نفتح المحضر ؟!

تحدث الأستاذ (سبعاوى) لا فض فوه أخيرًا ، فقال :

ـ تفضل ، افتحه .. لكن تذكر أنى متمسك بحق موكلتى القانونى فى الإفراج عنها بكفالة مالية اليوم ، وبضمان محل إقامتها ..

هز وكيل النيابة كتفيه وقال فى تبرُّم :

ـ يمكننى أن أحجب عنها هذا الحق ، وأن أصدر قرارًا بحبسها مدة ٤٥ يومًا كاملة على ذمة التحقيق كما تعرف ..

قال (سبعاوى) فى خبث :

ـ أعرف ، وأعرف أيضًا أن السيد النائب العام لن يرضى بقرار كهذا .. لو أنك تحب أن يهاتفك ؛ ليخبرك بنفسه فلا مشكلة !

مط وكيل النيابة شفتيه ، وقال فى امتعاض :

ـ كلا ، سوف تنال حقوقها القانونية كاملة ، فلا تقلق ..

عاد (سبعاوى) يتسلّى بممارسة لزوجته :

ـ مادمنا نتحدث عن حقوقنا القانونية ، نريد صورة ضوئية كاملة من ملف القضية بعد انتهاء المحضر يا سيدى ..

قال وكيل النيابة فى ضيق :

ـ لا بأس ، سنوفر لكم صورة منه ..

بممارسة لزوجته عاد (سبعاوى) يتسلى :

ـ لنجعلها صورتين .. واحدة لى وواحدة لموكلتى ..

زفر وكيل النيابة على طريقة (اللهم طولك يا روح) ، وعاد يوافق على مضض :

ـ سأجعلها ثلاثًا ..

ثم إنه أشار إلى الكاتب الجالس بجواره ليتخلص من لزوجة المحامى القصير :

ـ افتح المحضر يا (زكى) ، فى ساعته وتاريخه بمعرفتنا نحن وكيل نيابة شرق القاهرة (عبدالله عادل) ..

تلاشى بقية كلامه فى أذنى ، مع شرودى فى مغزى الحوار الذى دار بينه وبين (سبعاوى) قبل لحظات ..

سأخرج بكفالة مالية وبضمان محل إقامتى ، ومع هذا لم أكن سعيدة ..

لم أكن سعيدة على الإطلاق !

* * *

٥ـ تطـابق ..

ظلت البصمات مصدرًا لاهتمام البشر على مدى آلاف السنين .. فى حضارة (بابل) القديمة كانوا يستخدمونها كأختام للعقود القانونية ، وفى (الصين) كانوا يستخدمونها لتزيين الأوانى الخزفية التى احتفظت بآثار بعضها مدة ستة آلاف سنة ، كما ظهرت بعض البصمات غائصة فى جدران مقبرة (توت عنخ آمون) .. غير أن فائدتها الشهيرة فى تحديد الهوية لم تكتشف إلا فى القرن التاسع عشر ، استنادًا إلى كون الحاجة أمًا شرعية للاختراع !

حتى القرن التاسع عشر لم يكن الناس يغادرون قراهم إلا نادرًا ، وكان عاديًا أن يعيش الإنسان حياته كلها دون أن يضع عينه فى عينى غريب .. ومع بزوغ فجر الثورة الصناعية فى (أوروبا) والقارة الأمريكية ، امتلأت المدن الحديثة بالمهاجرين الباحثين عن حياة أفضل ، ولم يكن من السهل التحقق من أسمائهم وخلفياتهم الاجتماعية بالنسبة لأصحاب الثروات والمزارع والمصانع .. وليت الأمر توقف هنا ، فالمجرمون كانوا قد تعودوا على انتحال أسماء مستعارة أمام العدالة لكى يفروا من سجل جرائمهم السابقة ، وهكذا كان النظام أن يُحكم على القضية كوحدة

واحدة دون النظر إلى التاريخ الجنائى للمجرم ، بمعنى آخر ، الذى ارتكب عشر سرقات يعاقب على واحدة فقط ، هى الأخيرة بالطبع ، وهو ما كان ليضرب النظام القضائى من حيث عدالته الفعلية فى مقتل ..

هكذا نشأت الحاجة للبحث عن طريقة أكثر تحديدًا للتحقق من الهوية ، أولها كان من ابتكار موظف الشرطة الفرنسية (ألفونس برتليون) ، وقد اعتمد فيه على القياسات الحيوية التشريحية للجسم مثل محيط الرأس ، طول الوجه ، طول الإصبع الأوسط الأيسر ، والصفات المميزة الأخرى كالندوب والشعر ولون العينين للتمييز بين شخص وآخر ..

ابتكر (برتليون) نظامًا لتسجيل هذه القياسات فى بطاقات تجرى فهرستها بترتيب معين ، ورغم بدائية الفكرة بالنسبة لنا الآن ، إلا أنها أثبتت نجاحًا فى تلك العصر ، لكن اكتشاف بصمة الإصبع فى (بريطانيا) المجاورة كان يحمل وعودًا بدقة أكبر .. فمنذ ستينيات القرن التاسع عشر كان السير (ويليام هيرشل) الضابط الذى يخدم فى مستعمرات (الهند) ، يحتفظ بسجلات من بصمات الأصابع ويستخدمها فى حل نزاعات العقود المعتادة وبعض قضايا الاحتيال ، لكن الاستخدام الحقيقى للبصمات لم يتحقق حتى عام ١٨٦٩ عندما أصدر البرلمان البريطانى القانون الذى عرف باسم (قانون المجرمين الاعتياديين) ..

إنه الذى يفرض على القضاة أن يأخذوا بعين الاعتبار الجرائم السابقة للمجرم من أجل تحديد شدة الحكم الصادر عليه ، وهكذا كان لابد من إيجاد وسيلة ما للتحقق من هذه الجرائم السابقة ، وقد قدم اكتشاف الحقيقة العلمية القائلة بأنه لا يوجد اثنان فى هذا العالم ممن تتشابه المنحنيات الجلدية على أطراف أصابعهم إلى حد التطابق ؛ قدم هذا الاكتشاف الحل السحرى للمشكلة .. الدكتور (هنرى فاولدز) كان أول من نشر تعليقاته العلمية فى مجلة Nature حول هذه المسألة ، وهو صاحب فكرة وضع البصمة على الورق باستخدام حبر المطابع ، بعدها أدلى السير (فرانسيس جالتون) بدلوه ، وله شهرته فى علم تحسين النسل eugenics الذى صاغ له المصطلح بنفسه بكتابه (بصمات الأصابع) عام ١٨٩٢ ، الذى أنشأ فيه التصنيف الثلاثى للأشكال الرئيسية لبصمات الأصابع (الأقواس ، العُقَد ، الدوامات) ، وصمم نظامًا لترقيم المنحنيات على أطراف الأصابع يعرف بنظام (جالتون) مازال يستخدم حتى يومنا هذا فى جميع أنحاء العالم ، رغم أن اهتمام السير (جالتون) العلمى أساسًا كان بإيجاد علامات بصمات الأصابع المشتركة بين الأجناس البشرية ، وهو ما أخفق فيه بجدارة فيما عدا ملاحظته بأن اليهود تحوى بصمات أصابعهم أقواسًا أقل !

بعدها بعام واحد أسس مفوض سكوتلانديارد (إدوارد هنرى) نظامًا سهلا لتصنيف وتجميع البصمات .. لقد اعتبر أن بصمة أى إصبع يمكن تصنيفها إلى واحدة من ثمانية أنواع رئيسية ، واعتبر أن أصابع اليدين العشرة هى وحدة كاملة فى تصنيف هوية الشخص .. وقد أدخلت فى نفس العام البصمات كدليل قوى فى دوائر الشرطة البريطانية ..

لا أحد يعلم كيف سمع (مارك توين) بموضوع البصمة هذا ، غير أن روايته Pudd'nhead Wilson المنشورة عام ١٨٩٤ هى التى زرعت هذه التيمة البوليسية فى الخيال الأمريكى .. الشخصية الأساسية فى الرواية لمحام يقضى وقته فى جمع آثار البصمات ، وهو ما يجعل الجميع يسخرون منه ويطلقون عليه Pudd'nhead أو الرأس المفرى ؛ حتى يستطيع الرجل أن يدهش الجميع عندما يستخدم آثار البصمات هذه فى حل لغز جريمة قتل .. وقد تحولت خطبته الروائية إلى دستور قانونى غير قابل للشك أو المساءلة :

ـ كل إنسان يحمل معه من المهد إلى اللحد بعض المقومات الجسدية التى لا تتغير صفتها أبدًا ، بها يمكن التعرف عليه دائمًا دون ظل من شك أو تساؤل .. هذه المقومات هى توقيعه الفسيولوجى ، وهى غير قابلة للتزييف ، لا هو يستطيع أبدًا أن ينكرها أو يخفيها ، ولا هى تتأثر بعوامل التعرية أو طفرات الزمن .. هذا التوقيع متفرد تمامًا

بالنسبة لكل شخص ؛ إذ لا توجد نسخة أخرى متطابقة بين السكان المتزايدين لهذا العالم الواسع !

* * *

معنى هذا ببساطة أننى سوف أحاكم فى قضية قتل (هلال رضا) بالفعل ، وربما تقتنع المحكمة بدليل البصمة الدامغ هذا ، فأجد نفسى أمام حبل المشنقة ، أو على الأقل نزيلة سجن النساء لمدة ربع قرن قادم من حياتى ، التى لم يمض منها هذا العدد من السنوات بعد ..

لكن .. حقًا ، كيف وصلت بصمتى إلى هناك ؟!

فور عودتى إلى المنزل قلبت كل الكتب البوليسية التى تحويها مكتبتى بحثًا عن أى معلومة تتعلق بالبصمات .. وكل ما وجدته كان تقليديًا لا يروى ظمأ : التأكيد المستفز على عدم تشابهها حتى بين التوائم الناتجة من انقسام خلية جنينية واحدة .. أتذكر أننى ألقيت هذه المعلومة أكثر من مرة فى فقرة (هل تعلم ؟!) أمام ميكروفون الإذاعة المدرسية ، فما الجديد ؟!

لقد دخلت شقة الرجل إذن وتركت بصمتى فيها لآخذ المستندات التى تدين عائلة (البحراوى) فى مغامرة (ممنوع الاقتراب) ، رغم أننى لا أذكر شيئًا من هذا ؛ هل سأعرف أكثر من الحكومة ؟! وهو ما يعيدنى لنقطة الاضطراب النفسى مجددًا ، ويجعلنى أفكر فى اتصال هويتى بهوية السيد (س) رغمًا عنى ..

هل دس أحد بصمتى هناك عنوة ؟!

لكن .. لماذا ؟!

أحتاج إلى رأى طرف ثان حتى أنظم أفكارى ، وأبى ليس هنا ليساندنى بكل أسف ..

حاولت الاتصال بـ (هشام) أكثر من مرة ، ما زال هاتفه المحمول خارج نطاق الخدمة ، حتى عندما غامرت بالاتصال به فى منزله رغم أنى أعلم شعور والدته المرهف تجاهى لم يرد أحد ..

يبدو إيجاد طرف ثان فى حياتى الآن منالا عسيرًا ..

صديقاتى ؟!

بعد حماقتى مع (مروة) أفضل أن أكون بعيدة عنهن قليلا ، كيف أواجههن وقد ثبت كذب ما كنت أدعيه ، وأثبتت النيابة بالأدلة عدم وجود من تسمى (سماهر) أصلا فى ذلك الفندق ؟!

هى مؤامرة دون شك ..

بصمتى فى منزل (هلال رضا) ، لقائى المزيف والمعد مسبقًا بـ (سماهر) ، إيداع مبلغ ضخم فى رصيدى البنكى المتواضع جدًا ، مع بعض الرتوش التى تكتمل بها الصورة

لحسن حظ من خططوا لها : جواز السفر المحترق وكتاب (الفريضة الغائبة) ونجاتى من الحادث الذى مات فيه الرجل ..

من الذى خطط لهذه المؤامرة الجهنمية ؟!

وماذا يريد ؟!

ليس أمامى إلا الانتظار بكل أسف ، حتى يغلبنى الملل ..

والنعاس !

* * *

دائرة الضوء فى عينى وأنا أنزف دم جراحى الممزقة ..

دائرة الضوء فى عينى والقيود تشد جلدى إلى مقعد الاستجواب ..

دائرة الضوء وهتاف المحقق :

ـ ألن تعترفي ؟!

تصرخ خلاياى فىّ وفيه :

ـ أنا الجانية ..

فلا يتجاوز الصوت الحنجرة ..

تقطعت كل حبالى الصوتية فى صهريج ألفاز ..

ينهال السوط فى يده مفرقعًا على صدرى ، فأصرخ ..

ينفتح فى دمى جرح جديد ..

أبكى قهرًا ، دموعًا وندمًا ..

وأوشك على الموت ، لكن ..

تتفتح الزهور فجأة من جراحى المفتوحة للسماء ..

تنفك القيود التى تربطنى بمقعدى من تلقاء نفسها ..

ويولد الضوء فى عينى قويًا ..

أقوى من دائرة الضوء فى مصباح المحقق ..

الذى يتراجع أمامى من الفزع ..

وقد تحولتُ إلى ظل فارع ..

لشخص آخر !

* * *

استيقظتُ فى النهار المبكر والشمس قد أشرقت فى الخارج بالكاد على رنين هاتفى المحمول ، فهرعت نحوه ولم أتعرف على رقم الطالب لأول وهلة ..

ربما هو ..

أبى ، أو (هشام) ، أو السيد (س) ..

ـ (نسرين) ؟! كيف حالك يا حبيبتي ؟!

الصوت مألوف بشدة ، لكنه النوم المتقطع غير المريح بملابس الخروج على أريكة الصالة :

ـ من معي ؟!

ـ أنا (ممدوح) .. عمك (ممدوح الجبالى) ..

ترى .. هل أحتاج إلى هامش آخر لأخبركم فيه أنه قد ظهر مسبقًا فى جزئى (إخوة الدم) مع ابنه المفعم بالطاقة والحيوية (حمادة) ؟! كلا .. كفانا من الهوامش فى هذه المغامرة !

لمن لا يعرف ، خالى يقيم فى (الإسماعيلية) مع ابنه دون زوجة ، ولهذا قصة طويلة لم أحكها من قبل ، ولا مجال لحكايتها الآن ..

عمى (ممدوح) ؟! كيف حالك ؟! منذ زمن بعيد لم أسمع صوتك ..

هى طريقة مهذبة لكى أسأله عن سبب اتصاله بى الآن ، وطريقة أكثر تهذيبًا للومه على عدم السؤال عنى طوال الشهور الماضية ..

ـ أين أنتِ الآن ؟!

سألنى متجاهلا مغزى عبارتى ؛ فأجبته بصوتى الناضح إرهاقًا :

ـ فى المنزل !

ـ هل أيقظتك من النوم ؟!

ـ لا عليك ، لم يكن نومًا هانئًا على أية حال .. فالكوابيس تطاردنى بلا رحمة ..

فاجأنى بقوله :

ـ لقد أفرجوا عنك ليلة أمس إذن !

ران الصمت علينا ، حتى سألته :

ـ كيف عرفت ؟!

فاجأتنى إجابته أكثر :

ـ الأخبار تملأ صفحات الحوادث فى جميع صحف اليوم !

هتفت فى غير تصديق :

ـ حقًا ؟! ماذا تقول هذه الأخبار ؟!

ـ تتحدث عن نبأ القبض عليك واقتيادك إلى المباحث ليلة أمس للشك فى كونك متورطـة فى قضية مقتل الصحفى الكبير (هلال رضا) .. صورتك وصورة بصمتك تملأ الصحف أيضًا ..

أصبحتُ علمًا بين عشية وضحاها إذن ..

ـ كنت أتصل للاطمئنان عليك ، لكن يبدو أن كل شىء على ما يرام ..

قالها كأنه قد أزاح ضميره ، فقلت محنقة :

ـ فعلا ، كل شىء على ما يرام .. لقد اقتادونى إلى المباحث وأهانونى وكادوا يحصلون على اعترافى قبل أن يفرجوا عنى بضمان محل إقامتى ، والآن أنا بطلة فضيحة قومية أواجهها وحدى دون أن أجد ظهرًا أتكئ عليه .. ما الذى يمكن أن يتمناه أكثر من هذا حتى يكون كل شىء على ما يرام ؟!

صوت عمى (ممدوح) غارقًا فى الحرج :

ـ (نسرين) .. أنا آسف ، تعلمين أن ظروفى صعبة وأننى ...

صحت فى انفعال جارف :

ـ الجميع ظروفهم صعبة ، وعلىّ أن أقدر ظروف الجميع .. لكن .. من يقدر ظروفى أنا ؟! هه ؟!

صمت ، ثم مواساة :

ـ يبدو أن أعصابك متعبة من ...

كلا ، هذا أكثر مما يمكننى احتماله :

ـ شكرًا يا عمى العزيز ، لا تنس أن تسأل عنى عندما تحل الكارثة القادمة ، إن كانت هناك كارثة قادمة ..

وأغلقت الهاتف على الفور ، لأتوجه إلى باب الخروج من المنزل ، وعبر السلالم كنت أنادى على :

ـ عم (خضر) ..

ظهر بوجهه الأسمر الكالح بالأسفل ، يحمل جريدة مفتوحة على صفحة الحوادث ، استطعت من هذا الارتفاع أن أميز صورتى تحتل جانبًا ضخمًا منها !

ـ من فضلك ، اشتر لى كل الصحف من عند بائع الجرائد ..

ـ كل الصحف ؟!

ـ كلها !

وبعد دقائق كانت الصحف كلها أمامى فى صالة المنزل ، بعد أن نقدت العم (خضر) ثمنها مضاعفًا ، وفى كل صفحات الحوادث كانت صورتى التى لا أدرى من أين حصلوا عليها ، وصورة البصمة التى انتزعوها من شقة (هلال رضا) بالإضافة إلى بصمتى المطابقة ، تزين جميعها موضوعًا واحدًا : ما حدث بالأمس فى المباحث الجنائية ، والاتهام الذى وجهته لى النيابة حول التورط فى قتل الصحفى الشريف الذى نشرت صورته بعض الصحف ..

استغرق الأمر منى وقتًا طويلا حتى أستوعب ما يجرى ، وحتى أنتبه لنقطة أخرى : أغلب الصحف لم تكتب شيئًا عن محاكمة آل (البحراوى) التى كانت تمثل موضوعًا صحفيًا ساخنًا حتى أمس فقط ، باستثناء جريدة أو اثنتين نقلت بعض أقوال محاميه الشهير (رجاء دياب) ، الذى يتقاضى أجرًا فلكيًا تتناقله همسات المجتمع القاهرى فى حسد ، والتى طمأن فيها الصحافة بدبلوماسية أن كل شىء يجرى على ما يرام ..

هكذا إذن تكتمل أضلاع المؤامرة التى دبرت ضدى بليل بالفضيحة المدوية ..

تأكدتُ أولا أن الصحف التى بين يدى صادرة فى طبعاتها الأولى ، لتكتمل النظرية فى رأسى :

إن هذه الطبعات الأولى تصدر وتوزع أمس ليلا فى حدود العاشرة مساء ، وقد تمّ إلقاء القبض على قبل هذا الموعد بساعة أو اثنتين ، مما يعنى أن الخبر تسرب من المباحث الجنائية قبل وقوعه أصلا ، وربما كان توغُّل التغطية الإعلامية السرطانى هذا مقصودًا من أجل غاية لم أستطع الوصول إلى قلبها بعد ..

أو لعل النظرية فى رأسى لم تكتمل فحسب ..

* * *

انهالت على المكالمات الهاتفية ، (رحاب) و(شيماء) و(تامر فوزى) وآخرون وأخريات .. حتى (مروة) نسيتْ إهانتى لها بالأمس فى عقر دارها ، وكانت أكثر احترامًا منى إذ اتصلت لتطمئن على وتبلغنى بمؤازرتها القلبية لى فى محنتى ، عارضة خدماتها بصدق ، فجعلتنى أندم على كل حرف تفوّهت به فى حقها ..

الجميع كانوا يطمئنون ويعرضون خدماتهم ، فتحولتُ أنا إلى ماكينة تعيسة تعيد نفس الرد بحذافيره تقريبًا :

ـ شكرًا ، سيكون كل شىء على ما يرام .. أدخرك لأمور أكثر أهمية يا عزيزى/ عزيزتى !

لدرجة أنى فكرت فى النهاية أن أغلق هاتف المنزل والمحمول كى أريح رأسى قليلا ، لكن .. نظرًا لغياب أهم طرفين فى حياتى عن هذا المهرجان الذى بدأ فجأة : أبى و(هشام) ، قررت أن أترك مساحة لهما للاتصال بى متى شاءا ..

السيد (س) أيضًا غائب جزئيًا ، غير أنه يُحسَب له على الأقل أن محاميه هو الذى أخرجنى من مبنى النيابة العامة بالأمس ، وهو الذى أوصلنى فى سيارة أجرة حتى هنا ، مشيعًا إياى ببسمة لزجة وعبارة مقتضبة :

ـ لا تقلقى ، موكلى يخبرك بأن كل شىء سيكون على ما يرام ..

استدرت نحوه قبل أن أغادر سيارة الأجرة ، سائلة :

ـ أخبرنى الصدق يا أستاذ (سبعاوى) ، هل أنت .. هو ؟!

ضحك كفأر ، قبل أن يجيبنى :

ـ لست من هواة العيش فى الظلام يا صغيرتى ..

وانطلقت به السيارة ، فى حين تحاملت أنا على نفسى حتى صعدت إلى الشقة ، ونمت بملابسى التى لم أغيرها منذ الأمس ..

راحتى لا تطاق الآن ، حمام ساخن وبعض المعطرات ، ثم وحدة قاتلة وعدم يتمدد ..

سأجن لو ظللت وحدى هكذا !

فكرت فى (جيهان نصيف) ، هاتفتها على رقمى المنزل والمحمول ولم ترد كالأيام السابقة ، وفكرت فى الأستاذ (سبعاوى) لكنه لم يرد على هاتف مكتبه ، وفكرت فى السيدة (ألفت همام) غير أنها بادرت بالاتصال بى قبل أن أفعل :

ـ ما هذا اللغو الذى يملأ الصحف يا (نسرين) ؟!

أجبتها فى صوت رخو :

ـ للأسف ، هذا اللغو صحيح ظاهريًا يا سيدتى ..

هتفت فى سخط :

ـ هذه محاولة رخيصة لتشويه صورتك أمام الرأى العام ..

ـ المشكلة أنى أجهل من يقف وراءها ، وما هو غرضه ..

ـ يجب ألا تسكتى ..

ـ وماذا فى يدى لأفعله ؟!

ـ اكتبى ، مقال رد توضيحى تشرحين فيه موقفك بالتفصيل أمام القراء ، وسأنشره فى جريدتى العدد القادم ..

لا تبدو فكرة سيئة إلى هذا الحد :

ـ سأحاول ، وسأتصل بك فور الانتهاء منه يا سيدتى ..

ـ لا بأس ، هاتفينى وسأرسل من يتسلمه من منزلك لو كنت لا تستطيعين إحضاره بنفسك ..

انتهت المكالمة وأنا أسأل نفسى : ترى هل أفسر دافع السيدة (ألفت) القوى لمساعدتى على أساس شخصى أم مهنتى ؟!

نحيت السؤال المتحذلق جانبا ، وأمسكت بأوراقى وقلمى ، وانطلقت أكتب ..

كتبتُ وكتبت ، سطور وسطور ، كلمـات تـتراص إثـر كلمات ، وانطلقت أفسر نظرية المؤامرة المحدقة بى محاذرة أن أورط نفسى فى مشاكل جديدة ، لكن الجرأة لم تنقصنى لسرد كل الوقائع وأسمى الأشياء بمسمياتها والأشخاص بهوياتهم الحقيقية ، وعندما كنت أكتب ما جرى لى فى قبو مبنى المباحث ، تساقطت دمعتى فوق الورق ، فسارعت بمسحها واستئناف الكتابة !

انتهى المقال الطويل ، وفى منتصف معاودتى لقراءته رن جرس الباب ، وعندما فتحت وجدته يقف أمامى بزيه الرسمى ووجهه الطفولى ونظراته المترددة ..

ـ (هشام) ؟! أخيرًا ؟!

قلتها دون شوق حقيقى ، لا أدرى أين توارى شوقى إليه ، ربما خلف تردد نظراته ..

ـ حضرت من المهمة إلى مبنى المباحث ثم إليك مباشرة ، لم أعد إلى المنزل حتى الآن ..

قلت فى جفاء وأنا أعقد ساعدى أمام صدرى ، وأستند بكتفى إلى حافة الباب :

ـ كأنه كان من الممكن أن تتأخر أكثر ..

ـ آسف ، لكنها طبيعة عملى التى تعرفينها جيدًا ..

قالها كأنه يعتذر عن جرم تنفيه كلماته ، فتجاوزت عن عتابى الصامت وقلت زافرة فى حرارة :

ـ لابد أن نبأ اتهامى قد بلغك كما بلغ (مصر) بأكملها ..

قال مطرقًا :

ـ بلغنى ..

ـ ما لا أعلمه إن كان ما جرى لى من أحد زملائك فى مبنى المباحث قد بلغك هو الآخر أم لا ..

عض شفتيه ، ولم تلتق عينه بعينى :

ـ (فادى عزيز) .. لقد عرفت كل شىء ..

قلت مقطبة :

ـ لقد صفعنى بقسوة ، وهددنى بالاغتصاب ، رغم معرفته بأنى خطيبتك ..

حاول أن يفسر لى :

ـ لأن بينى وبينه ما صنع الحداد .. لقد سبقتنى فى الترقية بعامين رغم أنى أكبره بعامين ، فهو قريب وزير الداخلية نفسه ، ويعتبرنى خصمه الشخصى لأنى ثرت وحاولت إيقاف ترقيته وفشلت !

هززت رأسى فى تفهُم متهكم :

ـ مفهوم .. مفهوم .. معنى هذا أنك لن تحرك ساكنًا تجاه من فعل بى ما فعله ، لأنك لا تريد استثارة المزيد من عداوته ..

ـ الأمر يتجاوز الانتقام الشخصى الآن ، إنك متورطة فى قضية قد تقضى على مستقبلك تمامًا يا (نسرين) ..

ارتفع حاجباى ذهولا :

ـ لا تقل لى أنك تصدق ما يقال عنى ..

حاول أن يتماسك :

ـ كنت قد رويت لك قصة تطابق البصمة التى عثر عليها فى شقة (هلال رضا) مع إحدى بصماتك عندما اتصلت بى هاتفيًا من (أمستردام) .. سمعت النبأ كمزحة من أحد أصدقائى بالمعمل الجنائى ، ثم أسندوا لى المهمة فتصورت أن الأمر لم يتعد أن يكون زوبعة فى فنجان .. محض لغو بين زملاء عمل يجمعهم مبنى واحد ..

ـ والآن ؟!

ـ أول درس نأخذه فى الأدلة الجنائية يا (نسرين) هو أن البصمات لا تكذب ، مهنتى كلها مبنية على هذه الحقيقة البسيطة !

هتفت فيه وأنا أكبت انفجارى الحقيقى لوقت آخر :

ـ وأنت تفترض الأسوأ .. لن ألومك ، وأشكرك من صميم قلبى على مؤازرتك لى فى محنتى يا عزيزى ..

ثم تراجعت وأغلقت باب الشقة فى وجهه ..

مادت بى الأرض ، وضاقت أنفاسى ، ولم أشعر بنفسى بعدها إلا وأنا أنهار باكية فوق الأريكة ..

* * *

٦ ـ انهيـــار ..

نهار آخر ..

قررت أن أهبط إلى الشارع دون خوف .. سوف أسلم المقال فى جريدة (الأربعاء) بنفسى إلى السيدة (ألفت) ، بعد أن أعدت كتابته طوال الليل لعشر مرات ، حتى مطلع الفجر ..

لم يرد عم (خضر) تحية الصباح التى ألقيتها عليه وهو منهمك فى قراءة الجريدة على مصطبته الخشبية المتهالكة ، سيتذرع فيما بعد بأنه لم يسمعنى ، لكن الحقيقة أعمق من ذلك بقليل أو لعله كثير ، وعلىّ أن أتجاوزها وأتجاوزه حتى لا يفسد يومى قبل أن يبدأ ..

وقبل أن أدس مفتاحى فى باب السيارة ، لمحتها واقفة فى نهاية الشارع ، فدق قلبى فى عنف .. الـ (مرسيدس) الفضية الفارهة ذات الأرقام الجمركية التى أفلتنى إلى الأميرة (سماهر) المزيفة قبل يومين ، بنفس أضواء الانتظار المتقطعة لأنها تقف فى الممنوع ، وقد تقدمتُ منها فى سرعة خشية أن يتراجع بها سائقها هربًا ..

لكنه لم يفعل ، وإن لم أتبين من فى داخلها بسبب الزجاج الداكن ..

عندما اقتربت من النافذة المجاورة للسائق ، هبط الزجاج الذى انعكس عليه وجهى المكفهر ليبدو من خلفه وجه آخر ..

وجهه الوسيم والحليق ، الشعر الأسود الفاحم الطويل المثبّت بـ (جل) قوى لامع ، البذلة البراقة المتوهّجة تحت ضوء الشمس ، والعطر الفاخر يملأ على حواسى ، ويثير فىّ تقزّزًا رهيبًا هذه المرة ..

ـ (شريف) ؟!

لن أنسى اسمه أبدًا .. إننا لا ننسى من يخدعنا بسهولة فى هذا الوقت القصير ..

ـ ليس هذا اسمى ، لكن لا بأس .. إنه يصلح على أية حال ..

قلت وأنا أحاول الرنو ببصرى إلىّ الأريكة الخلفية :

ـ لا أظن وجودك هنا الآن من باب المصادفات السعيدة ..

لمحت شخصًا ما فى الخلف ، لكنى لم أنجح فى تمييز ملامحه ، بينما قال (شريف) أو أيًا كان اسمه باسمًا وهو يشير إليه بإبهامه :

ـ كلا ، إن الأستاذ يريد لقاءك ..

الأستاذ ؟! أى أستاذ ؟!

خدعة أخرى ؟!

هبط الزجاج الخلفى لتبدو من خلفه الملامح واضحة ، وليتصاعد الصوت الأكثر وضوحًا :

ـ مرحبًا يا آنسة (نسرين) ..

رباه ، إنه هو بنفسه كما يظهر فى الصحف وعلى الشاشات وكما تتناقل اسمه الهمسات :

ـ (رجاء دياب) ؟!

أشهر وأغلى محام فى بر المحروسة ، بشعره الفضى ووجهه النحيل ..

ـ تفضلى بالركوب إلى جوارى ، فبيننا حديث لن يطول ..

هو محامى (جلال البحراوى) ، وهذه السيارة كانت وسيلة انتقالى إلى إحدى قرائن الاتهام الموجهة ضدى الآن ، الخطوط تتصل وتتشابك ، وها قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الحقيقة الصريحة كضوء الشمس الذى يحرق شعر رأسى القصير ..

لم أكذب خبرًا وجلست إلى جواره ، وضغط الرجل زرًا فى مسند الباب ليرتفع حاجز زجاجى سميك بيننا وبين (شريف) وسائق السيارة فى المقدمة ..

انعزلنا عنهما تمامًا مما يؤكد أهمية ما سوف يقال ، وخطورته ..

ـ أعتقد أنك قد رسمت صورة ذهنية كاملة عما سوف أطرحه عليك ، فأنت من أذكى صحفيات جيلك كما يقال عنك يا (نسرين) ..

قالها فى نبرات هادئة متسقة ، الأمر الذى جعلنى أطير فوق سحاب الفخر بذاتى إذ أعدل من وضع نظارتى فوق أنفى ، وأقول :

ـ يبدو أنك قد درستنى جيدًا يا أستاذ (رجاء) ..

ابتسم قائلا فى وقار الكبار الذى أعشقه :

ـ إذا كانت سنوات الخبرة قد علمتنى شيئًا ، فقد علمتنى أن أدرس قضاياى جيدًا لكى أربحها ..

ـ إننى إحدى قضاياك إذن ..

ـ قضية أخرى لا أنوى خسارتها ..

ـ تبعًا لمبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) ؟!

ـ تبعًا لمبدأ (كل شىء مباح فى الحرب) !

ـ وما هى الغنيمة التى ستعود عليك .. عفوًا ، على (جلال البحراوى) من هذه القضية الملفقة التى تلوثون بها اسمى وسمعتى ؟!

ـ الكثير من الغنائم ..

ورفع أصبعين نحيلين ليعد عليها :

ـ واحد : تحويل أنظار الرأى العام المتعطش عن قضية (البحراوى) مما قد يخفف الضغط الشعبى على الهيئة القضائية الموكلة بالحكم فيها قليلا .. ثانيًا وهو الأهم : التقليل من شأن شاهدة أساسية ضده قد تودى به إلى حكم الإعدام ، وذلك بجعل شهادتها فى القضية محل تساؤل بعد أن أصبحت متهمة أخرى فيها .. هكذا نضرب سرب عصافير بعدد قليل من الأحجار كما ترين ..

سألته سالكة أقصر الطرق :

ـ وما هو العرض الذى تريد منحى إياه يا سيدي ؟!

ابتسم فى دهاء ، قبل أن يقول :

ـ ليس عرضًا دمويًا على طريقة المافيا وليس عرضًا تافهًا على طريقة الأفلام العربية .. كل ما هناك أننى ألفت نظرك إلى أن شهادتك أمام المحكمة الأسبوع القادم فى

قضية (جلال البحراوى) سوف تحدد مسار قضيتك أنتِ كمتهمة فى نفس القضية .. اتفاق عادل للغاية كما ترين ..

أيتها العدالة .. كم من الجرائم ترتكب باسمك !

هكذا تتضح الصورة أمام عينى نسبيًا ..

إنها شبكة تهدف إلى إسقاط شهادتى أمام المحكمة بغير إرادتى لو رفضت التخفيف منها بإرادتى ، شبكة يديرها دهاء رجل قانون أريب أجلس إلى جواره حاليًا ، ويعلم الله وحده كم من الأموال أنفقت من أجل إنجاح هذه الخطة .. هناك مليون دولار فى حسابى البنكى ، ناهيك عن خطة لقاء الفندق الذى ذهبت إليه أثناء وجود رجل مشبوه ، وما تم دفعه تحت الطاولة لشخص مثل (فادى عزيز) الذى أدى دوره على أكمل وجه ، وكاد يوقع بى تماما لولا تدخل السيد (س) ، والنائب العام شخصيًا ..

هل البصمة هى الأخرى مدسوسة علىّ ؟!

هل جرى تلاعب فيها ؟!

عمومًا لقد خدمهم الحظ فى كل الأحوال بكتاب (الفريضة الغائبة) وبقايا جواز السفر المحترق ، وقد كانوا يبحثون عن كل ما يعضد من اتهامى فى سبيل براءة (جلال) ..

هكذا يبدأ اللعب على المكشوف ..

وهكذا يتوقف السيد (رجاء) عن الكلام المباح ، ولا أجد أنا ما أقوله ، فأهبط من السيارة فى تثاقل ، وتمضى هى بعيدًا .. بعيدًا .. وأمضى أنا بعيدًا .. بعيدًا ..

نحو الجهة المعاكسة ..

* * *

سلمت مقالى فى الجريدة ، ولم تكن السيدة (ألفت) هناك لكى أجلس معها ، فهبطت فى سرعة وأنا أفكر فى جهة أذهب إليها غير المنزل حتى لا أصاب بالمزيد من الكآبة ، وقد أتانى الاتصال الهاتفى من رقم خفى فور هبوطى ، فرددت على الفور :

ـ (نسرين) ..

لم يكن هو ..

لم يكن السيد (س) ..

كان (هشام) بلهجة رمادية قانطة :

ـ هل ما زلت غاضبة مني ؟!

ـ لست غاضبة فحسب ، بل أريد إعادة النظر فى علاقتنا من بدايتها ..

قلتها فى نفور ، وقد فاجأنى قوله بعدها :

ـ لديك كل الحق ، لم يكن يصح أن تهتز ثقتى فيك لأى سبب ..

ـ سأعتبر هذا اعترافًا صريحًا يدفعنى لمزيد من التفكير ..

ـ ما رأيك فى هذا الاعتراف إذن : أنا أحمق كبير ؟!

كادت ضحكة خافتة تند عنى ، لكنى كبحتها فى قوة ، وسألته :

ـ وما سر هذا الاكتشاف المفاجئ ؟!

ـ أخبار جيدة ، يجب أن ألقاك لكى أضعها بين يديك ..

ـ قابلنى فى (بينوز) الزمالك إذن بعد نصف الساعة ..

ـ هو كذلك ..

وفى الطريق كنت أفكر أننى ربما أكون قد سامحته بسرعة أكثر من اللازم ، لكنى تذكرت قسوتى عليه مرارًا من قبل ، وهكذا قلت أخيرًا بضمير مستريح : ها قد تعادلنا !

* * *

قال (هشام) بعينين تلمعان :

ـ لن تصدقى ما سأقوله لك ..

تبًا للمقدمات !

ـ هات ما عندك ..

ـ لقد درست ملف القضية جيدًا ، وقررت أن أتصدى بنفسى للبحث فى جذورها ، فقمت بتحرياتى الخاصة بعيدًا عن أعين الزملاء .. وأول ما بدأت به كان .. الفندق ..

قلت فى استبعاد لا يخلو من ضجر :

ـ لا تقل لى أنك عثرت على أثر للأميرة (سماهر) ، فلن أصدقك !

هتف فى حماس :

ـ كلا ، لكن الجناح الذى كانت تقيم به كان محجوزًا لمدة شهرين لعائلة مصرية ..

مطت شفتى :

ـ هذه أيضًا أعرفها ..

ـ لكنك لن تتخيلى أبدًا من تكون هذه العائلة ..

بدأ يثير اهتمامى :

ـ من ؟!

ـ (عبد المنعم شهاب) ، ألا تعرفينه ؟!

ـ كلا ..

ـ رجل أعمال نصف معروف ، وزوجته (رنا الحلوجى) هى ابنة خال (جيهان نصيف) ، زوجة (جلال البحراوى) شخصيًا !

هتفت فى دهشة حقيقية :

ـ حقًا ؟!

ـ أجل ، هذا يدل بما لا يدع مجالا للشك على كون عائلة (البحراوى) تحاول الانتقام منك بتلفيق هذه الدلائل الرخيصة ..

ربما لهذا السبب ابتعدت عنى (جيهان) بعد عودتنا سويًا ، لابد أنها فى جبهتهم الآن ..

ـ اسمع ما لدى إذن ..

رويت له كل شىء دار اليوم مع (رجاء دياب) فى سيارته ، وأتبعت بشرح نظرية المؤامرة من وجهة نظرى ، فقوبلت بتأييد هائل منه :

ـ بالفعل ، لابد أن (فادى عزيز) معهم .. لقد تساءلت طويلا عن مصدر مطابقته لبصمتك مع البصمة الموجودة فى شقة (هلال رضا) ، فلا توجد سجلات إجرامية سابقة خاصة بك لدينا فى المباحث ، وعرفت أنه استخدم الفيش والتشبيه الموجود فى ملفك بنقابة الصحفيين .. المعنى أنه كان يريد توريطك أنت شخصيًا ، إذ لم تكن مجرد عملية مضاهاة روتينية ..

سألته باهتمام جم :

ـ وما مدى إمكانية تلفيق دليل البصمة هذا برمته ؟! بمعنى أن يتم استبدال البصمة الأصلية التى عثر عليها فى شقة (هلال رضا) ببصمتى من أجل توريطى فحسب ..

هرش (هشام) فى شاربه بسبابته ، وقال :

ـ لو أردت رأيى ، هذا صعب جدًا .. ويكاد يكون مستحيلاً ، لأن الدليل تم رفعه وتحليله ومطابقته عن طريق أكثر من متخصص أهل للثقة ..

هززت كتفى :

ـ ألا يمكن أن يرشوهم (فادى) أو (رجاء) أو (جلال البحراوى) نفسه ؟!

قـال :

ـ أغلبيتهم نظيفو الأيدى ، لو كـان واحداً فقط لقلت جائز .. لكن الجميع ؟!

قلت فى لهجة عززتها بنظرة لوم :

ـ هذا يعنى أنك لا تزال تحمل نحوى شيئاً من الشك !

تنهد (هشام) ، ثم قال :

ـ لابد من وجود تفسير ما ، لابد ..

ليس العالم مكاناً مثالياً ، حتى أقرب الناس إليك يمكن أن يشكوا فيك إذا ما كـانت كل القرائن ضدك ، لا أحد سوف يؤمن ببراءتك سواك وعليك أن تخوض حربك وحيداً فى النهاية ..

لكن ، نحن فى حاجة لبعضنا البعض رغم كل شىء ..

رن هاتفى المحمول برقم دولى طويل ، وقد لمحت نظرة متسائلة فى عينى (هشام) فهززت كتفى بمعنى (لا أعلم) ، ثم ضغطت زر قبول المكالمة ..

الصوت غير واضح ، معنى هـذا أن علىّ النهوض والبحث عن مكان أقل ضوضاء ..

أشرت إلى (هشام) بأنى سوف أعود ، وانطلقتُ إلى خـارج المقهى المزدحم كله هاتفة بصوت مرتفع :

ـ آلو .. آلو .. آلوووووووو ..

فوجئت بصوت واضح يتكلم بإنجليزية أنيقة :

ـ الآنسة (نسرين الجبالى) ؟!

رددت بنفس اللغة :

ـ أجل .. من أنت ؟!

لهجة بريطانية قحة تؤكد على مخارج المقاطع الصوتية فى وضوح :

ـ أنا (ستيوارت كلتنجهلم) ، خبير بصمات الأصابع المتقاعد من شرطة (سكوتلانديارد) ، أتحدث إليك من (لندن) !

اقشعر جسدى :

ـ مرحبًا بك يا سيدى .. كيف يمكننى أن أخدمك ؟!

الصوت الغارق فى الضباب والصقيع :

ـ أعتقد أننى أنا من سيقوم بخدمتك يا سيدتى .. لقد قضيت خمسين عاماً من عمرى أحلل بصمات الأصابع ، وأعمل الآن

مستشارًا حرًا لمن يطلب خبراتى مقابل أجر .. أحد مجهولى الهوية أرسل إلى بريدى الإلكترونى ملف قضيتك كاملا مترجمًا إلى الإنجليزية ، مع شيك بمقدم أتعاب باهظ ، وقد درست الملف لأقف على التشابه بين البصمتين المرفقتين به ، وخلصت إلى نتيجة أيدنى فيها أغلب زملائى المختصين فى الطب الشرعى والجنائى بكلية (لندن) الملكية و(أكسفورد) و(كامبردج) ..

خفق قلبى فى أمل :

- وما هى النتيجة ، سيد (ستيوارت) ؟!

أتانى الربيع الطلق يختال ضاحكًا :

- إن البصمة المرفوعة من مكان الحادث ليست بصمتك يا آنسة (نسرين) .. إنه ليس تشابهًا قريبًا حتى .. صحيح أنها تتطابق مع بصمة إبهامك الأيمن ، لكنها بشهادة لفيف محترم من الأساتذة الكبار ليست مأخوذة من إبهام أصلاً .. بل تخص إصبع سبابة أيسر بكل وضوح !

* * *

٧ ـ مع سبق الإصرار

فى مكتبه بـ (شبرا) جلس الأستاذ (سبعاوى) خلف مكتبه المتهالك فى غبطة ، وأشار إلى شريط الفيديو وملف الأوراق أمامه قائلا :

- الآن سيصبح إثبات براءتك مجرد نزهة يا صغيرتى ..

نظرتُ إليه فى أمل ، وقلت :

- السيد (س) هو الذى أرسل ترجمة ملف القضية إلى السيد (ستيوارت) ، أليس كذلك ؟!

أزعجت الفكرة (هشام) عندما أسررت بها إليه بالأمس فى (بينوز) ، وأنا أزف إليه النبأ الذى يحمل براءتى على أجنحة البريد ، حيث أخبرنى السيد (ستيوارت) فى نهاية المكالمة التى تفضل بها على أنه سيرسل لى بطرد بريدى يحوى شهادته ، على عنوان مكتب محام يدعى (سبعاوى أبو الحمد) فى (شبرا) ، كما طلب منه مجهول الهوية أن يفعل ..

هذا دليل لا يقبل الشك على أن السيد (س) وراء دليل براءتى الذى لم يكن فى الحسبان ، غير أن (سبعاوى) قال فى غير اكتراث وهو يشعل سيجاره :

- إنها فكرة بارعة مهما كان مبتدعها ..

ثم أتبع نافثًا الدخان فى وجهى :

ـ هذه شهادات موقعة ومختومة من أكبر خبراء البصمات البريطانيين باعًا ، وشريط الفيديو هذا يحوى شهادة السيد (ستيوارت كانتجهام) نفسه بالصوت والصورة بحيث يمكن أن يعتد بها فى المحاكم المصرية نظرًا لصعوبة انتقاله إلى (القاهرة) فى هذه السن ، لا يمكن أن نحلم بأكثر من هذا ..

قلت :

ـ لكن هذا يضرب نظرية « عدم تطابق بصمتين » العتيدة فى مقتل .. أليس كذلك ؟!

هز كتفيه :

ـ لم تعد بصمات الأصابع دليلا جنائيًا له ثقله فى الدول المتقدمة ، نظرًا لسهولة التلاعب به ووجود أدلة أخرى أكثر قوة مثل البصمة الجينية DNA وبصمة الأذن الفرنسية الشهيرة وبصمة قزحية العين .. هناك قضية مماثلة لقضيتك تنظرها المحاكم الأمريكية ظهرت فيها حالة تطابق فى بصمات شخصين مختلفين(*) ، ويدرسون الآن فى الـ FBI فكرة إحلال نظام آخر للتعرف على البشر بدلا من قاعدة البيانات الشهيرة التى يمتلكونها ، والتى تحوى أكثر من ٤٥ مليون بصمة مختلفة ..

(*) حقيقة ..

برقت عيناى وأنا أقول :

ـ يبدو موضوعًا صحفيًا يسيل له اللعاب ..

ـ دعينا ننتهى من أمر الأدلة أولاً ..

وأتبع :

ـ سوف أذهب لتسليمها فى النيابة الآن ، لو كنت تحبين مرافقتى إلى هناك فعلى الرحب والسعة ..

ـ سأفعل ، لكن .. هل صنعت منها نسخًا احتياطية تحسبًا لأى ظروف ؟!

سألته وأنا أشير للمستندات والشريط ، فابتسم ناهضًا وهو يقول :

ـ لا تخشى شيئًا يا صغيرتى ..

نهضت بدورى ، وتقدمنى هو نحو باب مكتبه متممًا :

ـ أنا لا أضيع الوقت أبدًا ..

* * *

تسلم وكيل النيابة (عبد الله عادل) الملف وشريط الفيديو فى وجوم ، قبل أن يقول :

- يبدو أنكما لم تضيعا وقتًا أبدًا ..

قال (سبعاوى) ساخرًا :

- الوقت لعبة ، هناك من يجيد لعبها والفوز بها ، وهنـاك من يجهل قواعدها فيُهزم على الدوام ..

- ليكن ، سنأخذها بعين الاعتبار ..

قالها (عبد الله) وهو يمسك بالمظروف ، فقلت فى شك :

- أأن تتسلمها بمحضر رسمى ؟!

هز كتفيه وقال :

- سيتوجب عليكما العودة غدًا إذن ، فالكاتب فى إجـازة عارضة اليوم ، وأنا لا أودى هذه الأعمـال الورقيـة بنفسـى للأسف ..

أمسك (سبعاوى) بالمظروف قائلا :

- لا بأس ، سننتظر .. فلا يمكن التفريط فى أدلة بهذه الأهمية دون مستندات رسمية كما تعلم بالتأكيد ..

هز (عبد الله) رأسه فى شرود :

- بالتأكيد ..

لم تعجبنى ملامحه ولم يستسغ أنفى رائحة كلماته ، وعندمـ خرجنا إلى الممر المفضى إلى الخارج ، لمحت رجلا أعرفه يدخل إلى غرفة جانبية ..

كان كاتب المحاضر الذى يرافقـه دومًا ، فتسرب الشك إلـى صدرى أكثر ..

ربما يقصد كاتبًا آخر ، وربما لا ..

ربما كان وكيل النيابة (عبد الله عادل) حلقة أخرى فى شبكة المؤامرة التى تحاك ضدى ، وربما لا ..

لكن ، فى صباح اليوم التـالى ، عرفت أن كفـة الاحتمـال الأول هى الراجحة تمامًا !

★ ★ ★

فى الصباح كنت أقلب فى الصحف التى خلت من أى إشـارة إلـى قضيتى أو قضيـة آل (البحـراوى) ، وانشـغلت صفحـات حوادثها بالمدرس الذى فقأ عين تلميذه ، وبربة المنزل التى قتلت ابن شقيقها انتقامًا من والده ، وبالمكوجى الـذى مـزق جسد (طالبًا) فى موقف سيارات (هكذا مرت على المصحح اللغوى الأممى !) ، وعن الثلاثة الذين قتلوا صديقهم العامل

بغرض الانتقام ، عندما رن جرس هاتف المنزل ، لأول مرة منذ عودتى إلى (القاهرة) تقريبًا ..

ـ آلو ..

ـ هل سمعتِ بما حدث ؟!

الصوت أعرفه لكنى استغربته ، فلم أعهده زاعقًا من قبل ، ثم ما هذه البداية غير المبشرة بنبأ طيب ؟!

ـ الأستاذ (سبعاوى) ؟!

كان يلهث ، وهو يهتف كأنما شياطين الجحيم تطارده :

ـ لقد قتلوه .. قتلوه فى عقر داره ، لم أكن أتصور أن يدهم طائلة إلى هذا الحد !

ـ اهدأ يا أستاذ (سبعاوى) .. عمن تتحدث ؟!

ألقى بقنبلته الهيدروجينية فى سماعة الهاتف :

ـ السيد (ستيوارت كننجهام) !

صحت :

ـ من ؟!

ـ وجدوه جثة ممزقة فى منزله بمقاطعة (ويلز) .. النبأ يذاع الآن على الـ BBC ! !

ـ والأدلة ؟!

سؤال أنانى ، لكن الحى أبقى من الميت ..

ـ فى حوزتى الآن ، لكنى لا أعرف إلى متى !

صوت ارتطام عند الطرف الآخر ، أفزعنى حتى أنى هتفت :

ـ ماذا يحدث عندك ؟!

صراخ (سبعاوى) مزق طبلة أذنى ، وقلبى معًا :

ـ إنهم يحطمون الباب .. كلا .. كلا !

بعض الارتطامات الأخرى ، ثم رنين انقطاع الخط ..

ـ آلو .. آلو .. أستاذ (سبعاوى) .. آلو !

ليس هناك وقت للتفكير ..

ارتديت ملابسى بمنتهى السرعة ، وبمنتهى السرعة كنت أقود سيارتى إلى (شبرا) ، دعك من الاحتكاكات والاصطدامات البسيطة فهى من مميزات شوارع (القاهرة) فى هذا الوقت من النهار ، المهم أننى ربما لن ألحق الكارثة قبل أن تقع ..

بالتأكيد لن ألحقها ..

وكنت محقة ..

فى شارع جانبى متفرع من شارع (شبرا) الرئيسى؛ الشارع الذى يقع فيه مكتب الأستاذ (سبعاوى)، لم يفلح التجمهر فى إخفاء معالم الكارثة التى تنبعث دخانًا كثيفًا من نافذة المكتب ..

حريق التهم كل شىء، وعربة الإطفاء الحمراء الكبيرة تجاهد للسيطرة عليه ..

اقتربت فى فزع، وسألت أول الواقفين :

ـ هل مات أحد فى هذا الحريق ؟!

أجابنى :

ـ كلا ..

فشعرت ببعض الراحة، على الأقل (سبعاوى) مازال على قيد الحياة ..

غير أن الكهل الواقف بجواره قال :

ـ كيف يموت أحد والشقة مغلقة منذ سنوات ؟!

قطبت أسأله :

ـ شقة ؟! أليس هذا مكتب الأستاذ (سبعاوى أبو الحمد السبعاوى) ؟!

قال الرجل :

ـ رحمه الله، كان رجلا طيبًا ومحاميًا لامعًا .. المكتب مغلق يا آنسة منذ وفاته قبل أكثر من سبع سنين !

قطبت أكثر :

ـ عمن تتحدث ؟!

ـ الأستاذ (سبعاوى) رحمه الله .. لقد كان صديقى .. هيه، أيام !

يا للرعب :

ـ هل .. هل كان قصيرًا أصلع الرأس و ...

قاطعنى الرجل فى حماس :

ـ عمن تتحدثين ؟! الأستاذ (سبعاوى) كان أطول منى بعشرة سنتيمترات تقريبًا، وكان غزير الشعر، حتى أننا كنا نتندر دائمًا بأنه ينام به قصيرًا فيصحو وقد بلغ طوله كتفيه !

رباه ..

هذا كثير .. أكثر مما يمكن لبشرى أن يحتمل !

* * *

صاح (هشام) مصعوقًا :

ـ ضاعت الأدلة ؟!

قلت وأنا أجلس واضعة رأسى بين كفى داخل مكتبه بالمباحث الجنائية :

ـ وضاع الأستاذ (سبعاوى) أيضًا .. لم يعثروا فى المكتب على شىء ، لا على جثة ولا على أى مستندات .. ويشتبهون فى أن سبب الحريق مجرد ماس كهربى برىء !

سقط (هشام) على مقعده :

ـ هذا يعيدك إلى نقطة الصفر من جديد ..

قلت فى مرارة :

ـ لعلك تقصد نقطة الجنون !

ـ موقفك القانونى الآن سيئ للغـــاية .. يمكن أن يصدر ضدك حكم قاس فى قضية قتل (هلال رضا) استنادًا إلى بصمتك والقرائن العديدة ضدك ..

ـ هكذا تكتمل دائرة التآمر .. وتتم جريمة قتلى مع سبق الإصرار والترصد ..

ـ اهربى ..

رفعت بصرى إليه ، فرأيته ينظر إلىّ متابعًا فى لهجة مرتعشة :

ـ اهربى بعيدًا يا (نسرين) ريثما نجد لهذه المعضلة حلا ما ، لو كنت مكانك لفعلتها .. لا قبل لنا بمجابهة هؤلاء الوحوش ..

ـ أنت يا (هشام) ، رجل القانون التنفيذى ، من يطلب منى ذلك ؟!

ـ يعيدنا هذا إلى الجدل القديم حول علاقة القانون بالعدالة .. هؤلاء يتلاعبون بالقانون من أجل تحقيق عدالتهم الخاصة يا (نسرين) .. لقد وضعت يدك فى عش دبابير وتأملين ألا تلسعك أذنابها ، بأى منطق ؟!

نهضت قائلة فى إصرار :

ـ بمنطق الحق يا عزيزى ، الحق الذى أقف فى صفه مؤمنة تمام الإيمان ببراءتى ..

هتف وقد ضاق ذرعًا بى وبالنقاش كله على ما يبدو :

ـ أنا الآخر مؤمن ببراءتك ، لكنى لن أستطيع ألا أنفذ حكم القبض عليك وإيداعك السجن بيدى لو صدر أمر المحكمة بهذا .. بماذا سينفعنى إيمانى وثقتها ؟!

ربما بدا حديثه مقتعًا ، لكن قناعاتى الداخلية راسخة كجبال لا يهزها الريح ..

ـ سنتحدث لاحقًا ..

قلتها وأنا أتجه إلى الخارج ، فسألنى :

ـ إلى أين ؟!

ـ أحتاج إلى أن أبقى وحدى قليلا ..

فى ممر الخروج رأيته : (فادى عزيز) ، يصوب سبابة يمناه نحوى رافعًا إبهامًا لأعلى ، كأنه يطلق على النار من مسدس وهمى ..

أشعلنى هذا بالغضب الرهيب ، وألمتنى الصفعة على خدى رغم مرور الأيام ..

لن أنسى أبدًا ..

أمام سيارتى رن هاتفى المحمول .. لا رقم على الشاشة ، فرددت آملة أن يكون هو :

ـ آلو ..

ـ حان الوقت ..

هو ، الصوت الأجش .. الغامض ..

ـ السيد (س) ؟!

ـ استنفدت كل الوسائل الشرعية ، وليس أمامى إلا اللعب معهم بنفس الطريقة ..

ـ ماذا ستفعل ؟!

ـ سترين ..

ـ وماذا عن (سبعاوى) ؟!

ـ ستعلمين كل شىء فى الوقت المناسب .. غدًا صباحًا سوف تظهر جميع أدلة براءتك ..

ـ كيف ؟!

ـ قليل من اللعب القذر لن يضر .. إنهم يذكروننى بالأيام الخوالى حقًا ..

ـ وكيف .. ..

انقطاع الخط ، واتصال الأسئلة ..

وعذاب الانتظار ..

* * *

فى كل ليلة يعود المقدم (فادى عزيز) إلى شقته النائية فى آخر منطقة (الهرم)، مرورًا بترعة (المنصورية) التى تبدو كلسان من الماء بين فكين صحراويين ..

فى كل ليلة تقطع سيارته الطريق المقفر، جالسًا إلى جوار الجندى الذى يقود السيارة بعين نصف نائمة، وهو (فادى) يفكر فى عدد من انهاروا أمامه اليوم، وفى طرق جديدة لاستنطاق المتهمين الذين سيلقى بهم حظهم العاثر فى طريقه غدًا ..

ربما يفكر أيضًا فى رصيده البنكى السرى حيث يدخر أموال المؤامرات غير القانونية التى يتقاضاها تحت الطاولة، واضعًا سلطاته فى خدمة من يدفع، محتميًا خلف قرابته بوزير لواحدة من أهم وزارات السيادة، وربما تعن له خواطر حمراء حول علاقاته الغرامية المتعددة والمشبوهة مع ساقطات المجتمع من أمثاله، وربما تمر فى خياله صورة مشتهاة لليلة أخرى من ليالى العربدة التى سيقضيها فى يوم الإجازة، غدًا، مع أصدقاء الطفولة ..

تقطع السيارة الطريق، والمذياع تنبعث منه أغانى محطة الإف إم التجارية الشهيرة، وفى هذه الليلة بالذات، تتوقف السيارة على جانب الطريق أبية الحركة .. يحاول الجندى تحريك المفتاح لكن المحرك خامل عنيد .. يرفع (فادى) رأسه نصف النائم ليسأله زاجرًا :

ـ ماذا هناك أيها الـ ... ؟!

يقول الجندى فى حيرة :

ـ لا أدرى يا باشا .. كانت ماشية (زى الفل) !

ـ أهو الوقود .. المبرد .. طاقم الكهرباء ؟!

يسأل (فادى) بمزيد من الانزعاج، فيرد الجندى بعد عدة محاولات فاشلة لإدارة المفتاح :

ـ سأهبط لأرى .. ثوان فقط يا باشا ..

ـ لا تتأخر يا بن الـ ...

يفتح الجندى الكبود ويغيب فى محاولة فهم سبب العطل، وقبل أن يكتشف ثقب المبرد الذى يسرب الماء، وانقطاع سلك الكهرباء عن مؤشر الحرارة بالذات، وقبل أن يهتف فى ضابطه بأى كلمة، تنهال على رأسه لكمة من الخلف، فيخر ساقطًا على الأرض الترابية كالجوال، بعيدًا عن مرمى بصر (فادى)، الذى يمنعه صوت أغانى المذياع المرتفع من سماع ما حدث ..

يغيب الجندى، فيخرج (فادى) رأسه من النافذة هاتفًا فيه فى عصبية بالغة :

ـ ماذا الذى يحدث عندك أيها ...

يبتر عبارته عندما يلمح طرف حذاء الجندى الساقط أرضًا أمام السيارة .. يمد يده ليفتح باب سيارته فتمتد يد من خارج النافذة ، وتجذبه إلى الخارج عبرها فى عنف وقوة ؛ ليسقط بوجهه على الأرض الترابية ، وتتسخ ملابسه وكرامته ..

يحاول (فادى) النهوض بسرعة حتى يرى من يواجهه ، لكن اليد القوية تمتد جانبة إياه من ياقة قميصه الخلفى ، وتقلبه فى الهواء ككيس من الريش ، ليسقط فوق سقف السيارة الصفيح ، ويطلق آهة ألم رهيب ، قبل أن يتكوم فوق الأرض الترابية مجددًا معيدًا الكبود إلى وضع الانغلاق ..

يحاول (فادى) البحث بعينيه عن مهاجمه ، فلا يرى إلا الظلام ..

تجذبه اليد من تلابيبه ، تدفع رأسه للاصطدام بباب السيارة أكثر من مرة ، وفى النهاية تقلبه فوق السيارة ليصطدم ظهره بزجاجها الأمامى فتهشمه تمامًا ، ويصرخ (فادى) من جديد ..

كل هذا حدث فى بضع ثوان لا أكثر ..

(فادى) ملقى فوق كبود السيارة المغلق الآن ، يلهث وينن ، الدماء تنزف من جروح وجهه وظهره ، والتراب يغطيه .. لا يقوى حتى على بصقه من فوق شفتيه ..

وينجح فى رؤية مهاجمه أخيرًا ..

ظل ضخم ، وجه لا تظهر ملامحه ، يرتدى معطفًا وقبعة كاوبوى ، ويقترب منه مشهرًا مدية حادة ..

يصرخ (فادى) فى رعب :

ـ من أنت ؟! ماذا ستفعل ؟!

يثبته مهاجمه فى وضعه على الكبود بيده القوية ، وبيده الأخرى يقرب المدية من وجهه ، وبصوته الخشن يقول كأنه يلقى بتعويذة :

ـ العين بالعين .. والسن والسن ..

يمد يده ، ويغرس المدية فى وجنة (فادى) اليمنى ..

ـ والبادى أظلم ..

نفس الوجنة التى صفع إحدى المتهمات فوقها منذ أيام !

تمزق صرخات (فادى) سكون الليل ، وتمتد يده لتخرج المدية من لحم وجنته ، وعندما يلتفت باحثًا عن مهاجمه ، لا يجد له أدنى أثر ..

كأنه لم يكن هناك من الأصل !

* * *

يفتح السيد (عبدالله عادل) عينيه ، ليجد نفسه فى آخر مكان يتوقعه ..

مازال يرتدى ملابس النوم المنزلية ، وآخر ما يذكره أنه قد دخل إلى سريره لينام مبكرًا كالمعتاد ، بينما زوجته وأولاده يمارسون هرجهم اليومى خارج حدود غرفة النوم ..

لكنه لم يكن هناك ، عندما فتح عينيه ..

صرخ فى فزع ، وتبددت صرخته فى الهواء ..

كان معلقًا بحبلين قويين يمتدان من صدره إلى أعلى ، جسده متدلٍ من حافة سطح بناية شاهقة فى أحد الأحياء الجديدة على حدود (القاهرة) ، على ارتفاع عشرة طوابق على الأقل ..

حاول ألا يهتز ، إذ أن أية حركة غير محسوبة لجسمه البدين قد تجعله يسقط ، فيدق عنقه بلا رحمة ..

كيف أتى إلى هنا ؟!

هذا ما سيقوده للجنون ، لكنه وقت التفكير بهدوء من أجل البقاء فحسب ..

رفع رأسه إلى أعلى فى حرص ، ليرى ذلك الظل المتشح بالسواد دون أن تظهر ملامحه ، بقبعة الكاوبوى فوق رأسه

والسيجارة المتدلية من فمه .. والمدية المرفوعة فى يده ، عليها آثار دم متخثر ..

صاح (عبدالله) :

ـ من أنت ؟! ماذا تريد منى ؟!

قال الصوت الخشن :

ـ العدالة !

صاح (عبدالله) :

ـ سأفعل كل ما تريده ، فقط اسحبنى إلى أعلى ..

أشار الرجل الغامض إلى ملف قابع فوق سور السطح ، وقال :

ـ إن أهملت هذا أو أنكرته ، فلسوف يكون عقابى شديدًا ..

ـ سأفعل كل ما تريده ..

ـ لا بأس ، سنرى ..

جذب الغامض الحبل إلى أعلى فشهق (عبد الله) إذ مال جسده فى زاوية حرجة مهيأة للسقوط ، لكن الدنيا أظلمت أمام عينيه تمامًا عندما غرس الرجل محقنًا فى ذراعه السمينة ..

وعندما أفاق ، كان النهار قد أشرق خارج نافذة غرفة نومه التى عاد إليها دون أن يعرف كيف ..

ظن الأمر كابوسًا ، لكنه وجد ملفًا على الكومود المجاور له ، يحوى شريط فيديو وبعض المستندات الإنجليزية المتعلقة بقضية البصمة ..

خفق قلبه بعنف ، وقرر أن يفى بوعده ، فالذى يفعل به ذلك ، لهو قادر على فعل أى شىء ..

أى شىء !

* * *

يدلف السيد (رجاء دياب) إلى مكتبه المنزلى فى وقت مبكر من النهار ، ليتصفح الجرائد ويتناول القهوة ، ويراجع جدوله اليومى ..

وفى ذلك النهار ، عندما دخل مكتبه ، لم يكن وحيدًا ..

ـ صباح الخير ..

التفت عبقرى القانون إلى صاحب الصوت ، ليرى رجلا غامضًا يرتدى قبعة كاوبوى ، ومعطفًا طويلا ، يجلس على مقعده الهزاز ، دون أن تظهر ملامحه ..

كان يخفيها بشريط من الكتان الأبيض كالذى تُلف به المومياوات الفرعونية ..

انتفض الرجل لوهلة ، وكاد الخوف يأكل قلبه وروحه وملامحه ، لكن لهجة الجالس على الكرسى الهزاز طمأنته :

ـ لا تقلق ، لا أنوى استخدام العنف معك ..

تجمّد (رجاء) فى وقفته ، واستطاع أخيرًا أن يسأل دون أن يفلح فى السيطرة على خوفه تمامًا :

ـ من أنت ؟!

الصوت الخشن :

ـ اعتبرنى زبونًا ..

ـ أنا لا أقابل الزبائن فى مكتب منزلى ..

ـ اعتبرنى زبونًا ذا طبيعة خاصة ..

بدأ (رجاء) يكتسب بعض الشجاعة :

ـ وما الذى يمكن أن أفعله لك ؟!

كان الصوت الخشن واضحًا إلى أقصى حد ممكن :

ـ تخل عن قضية (البحراوى) ..

ـ وما شأنك أنت بها ؟!

تساءل (رجاء) مستغربًا ، فقال الصوت الخشن :

ـ أفضل لك أن تفعل ، واعتبر هذا تهديدًا إن شئت .. ولكى أثبت لك نيتى السليمة حتى آخر مدى ، دعنى أعرض عليك مقابلا ماديًا سخيًا لتتنح عن القضية ..

ـ أتعابى غالية ..

ـ كم سيدفع لك آل (البحراوى) ؟!

أشهر (رجاء) سبابته ووسطاه :

ـ ٢ مليون من الجنيهات !

ـ رائع ..

وأخرج ورقة مستطيلة من جيب معطفه ، متابعًا :

ـ هذا شيك بمليون دولار ، فما قولك ؟! هل يكفيك ؟!

العرض السخى ألجم لسان (رجاء) ، وجعل الغامض ينهض مقتربًا منه :

ـ تنحَّ عن القضية ، تربح وتبتعد عن المتاعب ..

وتركه غارقًا فى ذهوله ، متوجهًا إلى باب المكتب ، ليغادره ويغلق الباب خلفه ..

ظل (رجاء) متشحًا بالصمت ، لكنه انتبه إلى أنه لم يسمع أى ضجيج لانفتاح باب أو نافذة بالخارج ، ولمّا أطلّ من فرجة الباب ، لم ير أحدًا هناك فى الصالة ..

وكانت كل الأبواب والنوافذ موصدة تمامًا !

* * *

٨ ـ صندوق بريد ..

انتظرتُها فى (بينوز) ، ولم تتأخر عن موعدها معى سوى بضع دقائق ، وقد اعتذرتْ عن ذلك فى حرارة صادقة :

ـ آسفة يا (نسرين) ، تعلمين مدى الزحام وصعوبة الحصول على سيارة أجرة فى هذا الوقت من الظهيرة ..

(جيهان نصيف) أو (جى جى) ، بعد أن هاتفتنى منذ ساعات وطلبت أن نلتقى ، تاركة لى تحديد الموعد والمكان ..

كان من السهل توقُّع ما تريده منى بعد كل ما جرى طوال الأيام السابقة ، والتى انتهت بالظهور المفاجئ لأدلة عدم تطابق البصمتين بتوقيع جهابذة الطب الشرعى فى (بريطانيا) ، وبشهادة السيد (ستيوارت كاتنجهام) المصورة بالفيديو فى النيابة ، دون أن أحتاج لكثير من الجهد حتى أتصور أن السيد (س) هو الذى يكمن وراء ظهورها ..

من أين أتى بها ؟! وكيف أقنع (عبدالله عادل) بإظهارها رغم تورطه الذى فاحت رائحته فى المؤامرة ؟! ولماذا تخلّى السيد (رجاء دياب) عن القضية فى مؤتمر صحفى صباح أمس ؟! وما سر الندبة التى تحتل خد (فادى عزيز) الأيمن وفزعه عندما رآنى فى زيارتى الخاطفة لـ (هشام) صباح اليوم ؟!

لن أعلم أبدًا ، فى هذه المرحلة المبكرة من عمرى على الأقل !

كان من السهل توقع ما تريده منى العزيزة (جى جى) ، فموعد إدلائى بشهادتى فى قضية زوجها (جلال البحراوى) غدًا ، وستنهال علىّ بعرض مالىٍّ سخى ، أو تواجهنى بتهديد شديد اللهجة ، بعد أن اختفت عنى طوال هذه المدة ، وأنا التى ظننتها إنسانة مختلفة ..

سألتها فى لهجة جافة كضرع بقرة بعد سنوات عجاف :

ـ وأين ذهبت السيارة المكتوبة باسم (شعبان) ؟!

ابتسمت وتضرّج وجهها بالحمرة ، إذ قالت :

ـ بعناها من أجل أن نجد مكانًا صغيرًا للسكن يضمنى أنا و(إحسان) ، تعلمين أن كل ممتلكاتنا الأخرى محجوز عليها ..

هل تمثل علىّ دورًا دراميًا ؟!

ربما ..

لو كان الأمر كذلك فأنا أشهد لها بالموهبة والإتقان ..

ـ ولماذا لم تردى على مكالماتى طوال الأيام الماضية ؟! هل بعت هاتفك المحمول هو الآخر ؟!

قالت ووجهها يتخضّب بالمزيد من حمرة الحرج :

ـ كلا ، إنه معطل ويحتاج إصلاحه لبضع مئات من الجنيهات غير متوفرة حاليًا !

موهبة وإتقان ، أم ... ؟!

قررت أن أقطع شكى باليقين ، وأن أتخذ من الهجوم وسيلة للدفاع :

ـ يمكننى أن أتصوّر السبب الذى طلبت لقائى من أجله الآن ..

كاد وجهها ينفجر بالحمرة :

ـ حقًا ؟! أشكرك .. ستوفرين علىّ هكذا كثيرًا من المقدمات !

ـ للأمر علاقة وطيدة بشهادتى غدًا فى قضية زوجك ، أليس كذلك ؟!

خفضت بصرها ، وغام زجاج عينيها بدمع مكتوم ، قبل أن تغمغم :

ـ كلا ، لقد جانبك الصواب بكل أسف ..

أدهشنى ردها :

ـ ألن تطلبى منى إذن أن أكف أذاى عنه ؟!

ـ افعلى ما يمليه عليك ضميرك ، فلن أبتهج لو حصل على البراءة فى جريمة يستحق عليها العقاب .. لقد فكرت فى أن

ألجأ للمحكمة حتى تطلقنى منه ، لكنى فكرت أن هذا لا يبدو سلوكًا مناسبًا من زوجة تجاه زوجها فى سـجنه ، اجتماعيًا على الأقل !

سألتُها مبهوتة :

ـ ما الشأن الذى تريدينني فيه إذن ؟!

جاهدت للتماسك ، حتى لا تنهار وهى تقول :

ـ إننى ألجأ إلى كل من أعرفه حتى يساعدنى على المضى بحياتى مع ابنتى قدمًا ، ولا تنسى ابنى (عاصم) أيضًا الذى يُعالج من الإدمان ..

وجدت نفسى أسألها فى حماس متلهف :

ـ كيف ؟! كيف يمكننى أن أساعدك ؟!

مدت (جيهان) يدها إلى حقيبتها وأخرجت ورقة صغيرة مطوية عليها كتابة مصورة بماكينة ضوئية ، وارتعشت يدها وهى تمدها وتشرح :

ـ إنه مشروع صغير أريد البدء فيه .. عبارة عن أصناف طعام أقوم بتحضيرها تبعًا للطلب ويمكن أن أوصلها للمنزل نظير أجر إضافى بسيط .. أنا أهوى الطبخ منذ صغرى ويمكننى أن أحول هوايتى هذه إلى مصدر للرزق .. لو أنك تعرفين من يحتاج إلى خدمة كهذه ، قدمى له هذه الورقة .. إنها تحوى بعض الأصناف المبتكرة التى أجيد صنعها ، بالإضافة إلى العنوان ورقم الهاتف ..

رباه ، كل كلمة تنطق بها هذه المرأة الفريدة ترفعها فى نظرى درجة نحو السماء السابعة ..

ابنة الرفاهية هذه لم تلجأ إلى الحلول السهلة ، وفضلت أن تأكل لقمتها بشرف ، متنازلة عن كل شىء ، إلا كرامتها ، وطهرها ..

ظللت صامتة أنظر إليها والورقة فى يدى ، وانتبهت إلى قسوة ما أفعله عندما مدت (جيهان) يدها لتمسح دمعة كادت تفلت من مقلتها ، فنفضت جمودى وقلت :

ـ سأفعل .. سأرى من يحتاج إلى خدمة كهذه بالطبع ، وهم كثر بالمناسبة !

ـ أكون لك شاكرة ..

قالتها (جيهان) وهى تمسح أنفها بكفها ، لتجدنى أمسك بيدها الأخرى فى تعاطف ، وأقول :

ـ أنت إنسانة رائعة حقًا ، لم أتصور أن يكون فى العالم الردىء من هم بهذا النقاء ..

أذهلها قولى ، فابتسمت قائلة :

ـ أشكرك مرة أخرى !

أبهجنى ارتفاع روحها المعنوية الطفيف ، فأتبعت قائلة :

ـ الآن ، تفضلى معى ..

ـ إلى أين ؟!

ـ إلى منزلى ، أنت مدعوة على الغداء عندى ..

ـ لكن ...

ـ لا يوجد لكن ، سنمر على (إحسان) ونأخذها معنا ، أنا أقيم وحدى فهل ستفوتين على فرصة دعوة شقيقتى الجديدة على الغداء ؟!

ـ (نسرين) ، لا أدرى ماذا يمكن أن ...

ـ ش ش ش ش .. الصمت أفضل فى هذه المواقف !

* * *

مر كل شىء وسارت الحياة فى طريقها المرسوم ..

حفظت قضية البصمة الخاصة بى فى النيابة ، أدليت بشهادتى الأمينة تمامًا فى المحكمة ، نشرت تحقيق (حسناء بروكلين) فى جريدة (الأربعاء) ، وخرجت من هذه المغامرة بمبلغ مليون دولار تم إيداعها فى حسابى البنكى ، لا أعرف فيم سأنفقها حتى الآن !

المهم ، لقد مر كل شىء ، وسارت الحياة من جديد فى طريقها المرسوم ..

* * *

انهلت بالمطرقة على المسمار فى جدار مدخل بنايتنا ، وعلقت عليه الصندوق الخشبى الذى كُتب فوقه بخط جميل (د. فـاروق الجبـالى) وأسـفله بحجـم أصغـر (نسـرين الجبالى) .. عدلت من وضعه وابتعدت قليلا لكى أنظر إلى تساوى زواياه القائمـة على مستوى الأرض ، عندما دوى الصوت من خلف ظهرى :

ـ أصبح لدينا صندوق بريد مشترك إذن !

استدرت هاتفة فى فرحة غامرة ، وقد تلونت الدنيا أمامى بألوان قوس قزح :

ـ أبى !

ولم أشعر بنفسى إلا وأنا فى حضنه ..

ـ يبدو أنك افتقدتنى بعض الشىء ..

ـ أكثر مما يمكن أن تتصور .. أين كنـت ؟! ومـاذا فعلت طوال فترة الغياب هذه ؟! ومـ ...

قاطعنى :

ـ فيما بعد ، إننى متعب للغاية الآن ..

نظرت إلى وجهه الذى طحنه الإرهاق ، وإلى ذراعه التى لا تزال مستندة على عكاز ، وابتسمت قائلة :

ـ أنا آسفة ، لن أغضبك مرة أخرى فى حياتى كلها ..

قال :

ـ سمعت هذا الوعد عدة مرات من قبل ..

قلت :

ـ هذه هى المرة الأخيرة ، أعدك بهذا أيضًا ..

وشبكت ذراعى فى ذراعه ، لكى يستند عليها فى صعوده على درجات السلم ..

ـ سأسمح لك بفترة وجيزة من الراحة ، بعدها تروى لـى كل ما جرى لك بعيدًا عنى ..

ـ أتمنى فقط أن تسمح لـى هذه الفترة الوجيزة بتأليف بعض القصص المسلية ، فلم يكن ما جرى مسليًا إلى هذه الدرجة ..

ضحكنا ، وصعدنا معًا المزيد من الدرجات ..

فى هذه الليلـة ، سيدخل عم (خضر) غرفته الصغيرة مبكرًا ، تاركًا مدخل البناية مشاعًا لكل من هب ودب ..

فى هذه الليلة ، سيظهر شبح عند مدخل البنايـة .. على ضوء المصباح الشحيح يمكنك استبيان بعض ملامحه ..

ثوب أبيض ، شال وردى ، جلد الوجـه متآكل متغضن ، والعينان عميقتان ..

سوف يسير الشبح على أطراف أصابعه نحو صندوق البريد ، وسوف يلقى فيه بقصاصة ورقية صغيرة ، قبل أن يختفى مجددًا ..

وفى الصباح ، سأتلقى رسالتى الأولـى فـى صندوقـى البريدى ..

رسالة قصيرة مقتضبة مكتوبة بخط غاية فى الرداءة ، ومهورة بالتوقيع المميز ..

« الرسالة الأولى ، لابد وأن تكون منى .. »

س

* * *

[تمت]

شخصية غامضة فى مغامرات وأجواء عجيبة

د. محمد سليمان عبد المالك

مغامرات س

9

البصمة

- البصمة كانت هناك تنتظر من يعثر عليها .
- البصمة كانت مطابقة ..
- البصمة كانت مؤامرة تعددت أطرافها للدفع ببريئة نحو قفص الاتهام ..
- البصمة كانت لعبة قذرة استخدمت فيها كل الأساليب المشروعة وغير المشروعة ..
- البصمة لم تكن مجرد خدعة ، وإنما كسر صريح لقاعدة علمية ثابتة ..
- البصمة كانت مغامرة أخرى لـ (نسرين الجبالى) ، مع ظهور شرفى خاص للسيد (س) ..

الرواية القادمة
الداثرة تدور
«عدد خاص»

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الثمن فى مصر ٣٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم